I

كيف حَدَثَ أن المُعلّم كَرَزة النّجّار، وَجَدَ قطعة من الخشب، حيث كانت تنتحب وتضحك مثل طفل.

كان يا ما كان ...

- مَلِكْ! - سيقول فوراً قرّائي الصّغار.

كلاّ، أيّها الأولاد، لقد أخطأتُم. كان يا ما كان، كان يوجد في قديم الزمان قطعة من الخشب.

لم تكن من الخشب الثمين، بل قطعة مؤونة بسيطة، من تلك التي يُلقون بها في المواقد في أثناء فصل الشتاء لإشعال النار وتدفئة البيوت.

لا أعرف كيف بدأت القصّة، ولكنْ، في أحد الأيّام، وَصَلَت قطعة الخشب هذه بطريقة ما إلى دكان نجّار عجوز، يُدعى مَاسْتِرْ أنطونيو(*)، فيما عدا أن الجميع كانوا ينادونه المعلّم كَرَزة، بسبب أرنبة أنفه التي كانت دائماً لامعة وحمراء قانية، مثل حبّة كرز ناضجة.

---

*) مَاسْتِرْ، لقبٌ يُطلق في إيطاليا على أصحاب المهَن الحُرّة، مثل النّجّار، الحدّاد وباقي الحِرَف اليدوية، ويقابلها باللغة العربية الدارجة لقب «مُعَلّم».

حالما رأى المُعلّم كَرَزة قطعةَ الخشب تلك، انتابتْه فرحة عارمة، حيث فَرَكَ يَدَيْه من الغبطة، ثمّ تمتم بصوت شبه مسموع:

- لقد وَصَلَت قطعة الخشب هذه في أوانها: سأستخدمُها لصُنع ساق طاولة.

شمّر المعلّم كَرَزة فوراً عن ساعدَيْه، وتناول الفأسَ المُستديرَ، ليبدأ في نَزْع لحائها، وتشذيبها، لكنْ، بينما كان يهمّ بإنزال ضربته الأولى، تجمّد في مكانه، وبقيت ذراعه مُعلّقة في الهواء، لأنه سمع صوتاً ناعماً يوصيه:

- لا تضربني بقوّة كبيرة!

لَكُمْ أن تتصوّروا بأيّ حال بقي ذاك العجوز الطيّب المُعلّم كرزة.

أدار عينَيْه المنبهرَتَيْن في أرجاء الغرفة ليرى من أيّ مكان كان قد انبعث ذلك الصوت الناعم، ولم يرَ أحداً! نَظَرَ إلى أسفل المنضدة، لا أحد. نَظَرَ داخل خزانة، كانت تبقى مقفلة دائماً، ولم يرَ أحداً. نَظَرَ في سلّة القشارة ونشارة الخشب، لا أحد. فَتَحَ مدخل الدكان لكي يلقي نظرة على الشارع أيضاً، ولا أحد! عجباً؟

- لقد فهمتُ، -قال عندئذ وهو يضحك ويَحُكُّ باروكته(*)، -يبدو أنني تخيّلتُ ذلك الصوت الناعم. فلنعاود العمل.

تناول الفأسَ مجدّداً بيده، وأنزل ضربة قاصمة على قطعة الخشب.

- آه! لقد أوجعتَني! – علا الصوت نفسه بنبرة أليمة ...

---

*) باروكة: Parrucca باللغة الإيطالية وتعني "شَعْر مستعار"، وكان استخدامها أمراً شائعاً في القرن التاسع عشر.

هذه المرّة، بقي المُعلّم كَرَزة جامداً في مكانه، بعينَيْن خارج حدقَتَيْهما من الفزع، بفم فاغر ولسان يتدلّى حتّى ذقنه، مثل قناع بشع يتدفّق من فوهته الماء. وحالما عاد إلى رشده، بدأ يردّد وهو يرتجف ويتلعثم من الخوف:

- ولكنْ، من أين صدر هذا الصوت الناعم الذي تأوّه؟ ... مع أنه لا يوجد مخلوق حيّ هنا. ألا تكون قطعة الخشب تلك قد تعلّمت النواح والشكوى مثل طفل صغير؟ أنا لا أستطيع أن أصدِّق ذلك. ها هي قطعة الخشب هنا أمامي، إنها قطعة من خشب تصلح للموقد، كمثيلاتها، وإذا ما أوقدنا بها ناراً، يمكن أن تكفي لطَبْخ قِدْرٍ من الفاصولياء ... عجباً؟ ألا يكون مختبئاً في داخلها أحد ما؟ إذا كان أحد ما مختبئاً بداخلها، فستكون عاقبته وخيمة. أنا سأتدبّر أمره الآن.

وبينما كان يردّد تلك العبارات، أمسك بكلتا يَدَيْه قطعةَ الخشب البائسة تلك، وبدأ يخبطها دون شفقة على جدران الغرفة.

ثمّ بدأ يصغي ليسمع فيما إذا كان هنالك صوت يشكو ألماً. انتظر دقيقَتَيْن، ولا شيء. خمس دقائق، ولا شيء. عشر دقائق، ولا شيء!

- لقد فهمتُ، - قال عندئذ وهو يُغالب الضحك ويَنفِشُ باروكته، - يبدو أن ذلك الصوت الناعم الذي صاح «آه» كنتُ قد توهّمتُهُ أنا! فلنعاود العمل.

وبما أنّ خوفاً هائلاً كان قد تقمّصه، حاول أن يغنّي، لكي يتشجّع قليلاً.

في الوقت نفسه، بعد أن وَضَعَ الفأس جانباً، تناول بيده المسحجة، لكي يجحف ويُسَوّي قطعة الخشب، غير أنه بينما كان يسحجها جيئة وذهاباً، سمع الصوت الناعم نفسه يقول ضاحكاً:

- توقّف! إنك تَقرِص لحمي!

هذه المرّة، المُعلّم كَرَزة المسكين، سَقَطَ على الأرض مغشياً عليه. وعندما ما فَتَحَ عينَيْه، وَجَدَ نفسه جالساً على الأرض.

كان يبدو وكأن وجهه قد تشوّه، وأرنبة أنفه، القانية دائماً، كانت قد أصبحت زرقاء من شدّة الهلع.

* * *

II

المُعلّم كَرَزة يهدي قطعة الخشب إلى صديقه جيبيتّو، الذي يأخذها، ليصنعَ منها دمية رائعة، حيث تجيدُ الرقص، تُبارزُ بالسيف، وتقوم بحركات بهلوانية خطيرة.

في تلك اللحظة، سُمِعَتْ طرقاتٌ على الباب.

- تفضّلوا! – قال النّجّار، دون أن يجد القوّة للنهوض من مكانه.

عندئذ دَخَلَ إلى الدكّان عجوز مُفعم بالحيويّة، وكان يدعى جيبيتّو، ولكن أولاد الحي، عندما كانوا يريدون إخراجه عن طوره، كانوا ينادونه بلقبه "بولِندينا"، بسبب باروكته الصفراء التي تشبه كثيراً عصيدة الذرة الصفراء.

جيبيتّو كان شخصاً متقلّب المزاج وسريع الغضب. الويل لمَنْ يناديه "بولِندينا"! كان يتحوّل فوراً إلى وحش، ولم تكن توجد وسيلة لكَبْح جماحه.

- صباح الخير، معلّم أنطونيو، - قال جيبيتّو – ماذا تفعلون هنا على الأرض؟

- أُلَقّنُ النّمل جدول الحساب.

- خيرٌ ما تفعلون!

- مَن الذي جلبكم لعندي، يا صديقي جيبيتّو؟

- رِجْلاي. ها كما، مُعلّم أنطونيو، لقد أتيتُ لعندكم، لكي أسألَكُم معروفاً.

- ها أنذا جاهز لخدمتكم، -ردّ النّجّار، متّكئاً على ركبَتَيْه.

- لقد لمعتْ في رأسي فكرة هذا الصباح.

- فلنسمعها.

- لقد فكّرتُ أن أصنعَ بنفسي دمية من الخشب، لكن دمية رائعة، حيث تجيدُ الرقص، تُبارزُ بالسيف، وتقومُ بحركات بهلوانية خطيرة. أريد أن أجولَ العالم مع هذه الدمية، لكي أكسب قُوْتي، ما رأيكم؟

- أحسنتَ، يا بولِنديا! – صَرَخَ الصوت نفسه، حيث كان لا يُعرَفُ مصدره.

ما إن تناهى إلى سَمْعه مَنْ يناديه بولِنديا، امتقع وجه جيبيتّو من شدّة الغضب، وملتفتاً نحو النّجّار، قال له بغيظ:

- لماذا تهينونني؟

- ومَنْ ذاك الذي يُهينكَم؟

- لقد ناديتُمُوني بولِندينا! ...

- لم أكن أنا مَنْ ناداكم.

- بعد قليل، ستتّهمونني بأنني أنا فعلتُ ذلك! بينما أنتُم مَنْ فعل ذلك.

- كلا!

- أجل!

- كلا!

- أجل!

وباحتدام النقاش بينهما، انتقلا من الكلمات إلى الأفعال، ومُمسكان بخناق بعضهما البعض، تبادلا اللكمات والركلات والصفعات.

بانتهاء العراك فيما بينهما، وَجَدَ المعلّم كَرَزة بين يَدَيْه باروكة جيبيتو الصفراء، وجيبيتّو لاحظ أنه يُمسك بفمه باروكة النّجّار الضاربة إلى الرمادي.

- أعيدوا إليّ باروكتي! - صاح المُعلّم كَرَزة.

- وأنتم، أعيدوا إليّ باروكتي، ولنتصالح.

العجوزان، بعد أن استعاد كل واحد منهما باروكته، تصافحا، وأقسما بأن يبقيا صديقَيْن مخلصَيْن طوال حياتَيْهما.

- إذنْ، يا عزيزي جيبيتّو، -قال النّجّار كعلامة تأكيد للصلح الذي تمّ بينهما، - ما هو المعروف الذي كنتُم تبتغونه منّي؟

- أريد بعضاً من الخشب، لكي أصنع دميتي، هل تعطوني إيّاه؟

ذَهَبَ المُعلّم كَرَزة فوراً، وهو في قمّة سروره، ليتناول من فوق منضدة العمل قطعة الخشب تلك التي كانت سبباً في زرع الكثير من الخوف في نفسه. ولكنْ، حين كان بصدد تسليمها إلى صديقه، انتفضت بعنف من بين يَدَيْه، وذَهَبَت لترتطمَ بقوّة على مقدّمة ساقَيْ جيبيتّو الهزيلَتَيْن.

- آه! أبهذا اللطف تَهِبُون مالكم، يا مُعلّم أنطونيو؟ لقد كدتُم أن تعطبوني! ...

-أقسم لكم أنني لم أكن أنا الفاعل!

- إذنْ، لربمّا أنا كنتُ الفاعل! ...

- الذنب ذنب قطعة الخشب هذه ...

- أعرف بأنه ذنبها: ولكنْ، أنتُم مَنْ قذفها على قصبة ساقي!

- أنا لم أقذفكم بها!

- أنتم تكذبون!

- جيبيتّو، لا تهينوني، وإلاّ سأناديكم بولِندينا! ..

- مُغفّل!

- بولِندينا!

- أبله!

- بولِندينا!

- أيّها القرد القبيح!

- بولِندينا!

عندما سمع جيبيتّو أنه يُدعى بولِنديا للمرّة الثالثة، فَقَدَ بريقَ عينَيْه، فهجم على النّجّار، وكالَ كلّ واحد منهما للآخر ما يكفيه ويزيد من الضربات.

بعد انتهاء العراك، وَجَدَ المُعلّم كَرَزة نفسَهُ بخدشَيْنْ إضافيَّيْنْ على

أنفه، وذاك الآخر بزرَّيْن مفقودَيْن من سترته. بهذه النتيجة، لم يكن هنالك غالب ولا مغلوب، لذا تصافحا وأقسما بأن يبقيا صديقَيْن مخلصَيْن طوال حياتَيْهما.

في هذه الأثناء، جيبيتّو أخذ معه قطعته الخشبية المُسَحّجة، وبعد أن شكر المعلّم كَرَزة، عاد إلى البيت وهو يَعرجُ.

* * *

III

جيبيتّو، بعد أن عاد إلى البيت، يبدأ فوراً في صُنع الدمية المُتحرِّكة ويُطلق عليها اسم بينوكيو.

المقالب الأولى للدمية المُتحرِّكة.

بيت جيبيتّو كان مؤلّفاً من غرفة صغيرة، تقع في الطابق الأرضي من المبنى، وكان الضوء يدخلها من منفذ تحت الدرج، والحال، كان لا يمكن للأثاث إلاّ أن يكون أكثر بساطة: كرسي قديم، سرير متهالك، وطاولة صغيرة متضعضعة تماماً. بينما على الجدار المقابل، كانت تُشاهَد مدفأة متوقّدة، لكن النار كانت مرسومة، وبجانب النار، كان مرسوماً قِدْرٌ يغلي بمرح، ويبعث بغيمة من البخار الذي كان يبدو وكأنه حقيقي.

حالما دَخَلَ إلى البيت، تناول جيبيتّو فوراً أدوات عمله، وبدأ ينحت، ويصنع دميته الخشبية.

- ما هو الاسم الذي سأُطلقه عليه؟ -قال في نفسه. - أريد أن أسمّيه بينوكيو. هذا الاسم سيجلب له الحظّ. لقد تعرّفتُ على عائلة

كاملة من البينوكيين(*): بينوكيو الأبّ، بينوكيا الأمّ، بينوكيو الأولاد، وكانوا جميعاً راضين عن حياتهم. أغنى واحد منهم، كان متسوّلاً.

بعدما عَثَرَ على اسم لدميته، عندئذ بدأ يعمل بجدٍّ، وشرع فوراً بنَحْت شَعره، ثمّ جبينه، ثمّ عينَيْه.

بعد انتهائه من العينَيْن، كم كانت دهشته كبيرة عندما لاحظ بأن العينَيْن تتحرّكان وأنهما تُحدِّقان فيه بإصرار.

جيبيتّو، عندما رأى أن تلك العينَيْن الخشبيَّتَيْن تُحدِّقان به، انتابه الغَمّ تقريباً، وقال بلهجة شاكية:

- أيّتها العينان الخشبيَّتان، لماذا تُحدِّقان بي؟

لم يُجبْ أحد.

وبعد العينَيْن، نَحَتَ الأنفَ، ولكنْ، حالما انتهى منه، بدأ ينمو: وبنُمُوِّه المتواصل، تحول خلال دقائق قليلة إلى أنف طويل، لا نهاية له.

جيبيتّو المسكين كان يُجهد في بَتْره، وبقدر ما كان يبتره، كان الأنف السفيه يزداد طولاً.

بعد الأنف، قام بنَحْتِ فمه.

لم يكن الفم قد انتهى بعد، حيث بدأ يضحك ويسخر منه.

---

*) لا يُعرف بالضبط مصدر اسم بينوكيو: إذا كان حَقّاً أن بينوكيو يعني «بذور أو حبوب الصنوبر» الصالحة للأكل، فهنالك كنيات كثيرة مشابهة مشتقّة من هذه الكلمة. ولكن مُسمّى بينوكيو في اللهجة التوسكانية القديمة كان يُقصد به شجرة «الصنوبر الثمري»، واسم بينوكيا، وبينوكينا كان يُشار به إلى الدجاجة أو المرأة صغيرة الحجم، وممتلئة القوام.

- توقّف عن الضحك! - قال جيبيتّو متضايقاً، ولكنْ، كان كَمَنْ يتكلّم إلى الحائط.

- توقّف عن الضحك، أكرِّر لكَ! - صَرَخَ بصوت متوعّدٍ.

عندئذ توقّف الفم عن الضحك، ولكنْ، بالمقابل، دفع بلسانه كله خارجاً.

جيبيتّو، لكي لا يُفسِدَ عمله، تصنّع عدم الاكتراث، وتابع العمل.

بعد الفم، نَحَتَ ذقنه، عنقه، كتفَيْه، بطنه، ذراعَيْه ويَدَيْه.

حالما انتهى من يَدَيْه، أحسّ جيبيتّو أنّ أحداً ما يسحب الباروكة من رأسه. رَفَعَ هامته نَحْو الأعلى، وماذا شاهد؟ شاهد باروكته الصفراء بيد الدمية.

- بينوكيو! ... أعد ليّ باروكتي حالاً!

وبينوكيو، بدلاً من أن يعيدَ له باروكته، وَضَعَها هو على رأسه، وكاد أن يختنق من وطأتها.

أمام تلك الحركة الصلفة والباعثة على السخرية، جيبيتّو أصبح حزيناً وكئيباً، كما لم يحدث معه أبداً في حياته، وملتفتاً نحو بينوكيو، قال له:

- يا للولد الشقي! لم تنته بعد من تكوين نفسكَ، وها أنت تبدأ في إذلال أبيكَ! هذا أمر سيّئ ... سيّئ، يا ولدي!

ثمّ جفَّف دمعة سائلة من عينَيْه.

كان لا يزال أمامه نَحْت الرجلَيْن والقَدَمَيْن.

عندما انتهى جيبيتّو من صُنع قَدَمَيْه، أحسّ بركلة تنزل على أرنبة أنفه.

- أستحقّ ذلك! - قال في نفسه - كان عليّ أن أفكّر في الأمر قبلاً! لقد فات الأوان!

ثمّ تأبّط الدمية، ووَضَعَها على أرض الغرفة، لكي يُمَكِّنُها من المشي.

كانت رِجْلا بينوكيو مشدودَتَيْن، وكان لا يعرف كيف يتحرّك، وجيبيتّو كان يقوده من يده، لكي يُعلِّمه كيف يمشي خطوة تلو الأخرى.

عندما دبّ النشاط في رجلَيْه، بدأ بينوكيو يمشي وحده، ويركض عبر الغرفة، ثمّ انسلّ من باب البيت، قَفَزَ إلى الشارع، وفرّ هارباً.

وجيبيتّو المسكين بدأ يلحقه دون أن يتمكّن من الإمساك به، لأن بينوكيو، ذلك الصفيق، كان يقفز كالأرنب الوحشي، ويخبط قَدَمَيْه الخشبيَّتَيْن بقوّة على بلاط الشارع، مُحدِثاً ضجيجاً، يوازي ضجيج عشرين زوجاً من قباقيب الفلاحين.

- أمسِكوه! أمسِكوه! - كان يصرخ جيبيتّو، ولكن الأشخاص المتواجدين في الشارع، برؤيتهم هذه الدمية الخشبية المُتحرِّكة، التي كانت تعدو بطيش لا مثيل له، كانوا يقفون وينظرون إليها مذهولين، ثمّ يضحكون، يضحكون ويضحكون بطريقة، لا يمكن وصفها.

في النهاية، ولمجرّد الحظّ، كان أحد رجال الدَّرَك(*) يمرّ بالصدفة من هناك، واسترعت انتباهه كل تلك الجلبة، واعتقاداً منه أن الأمر يتعلّق بمهرٍ فرّ من يد صاحبه، وَقَفَ بشجاعة، مباعداً رجلَيْه، في منتصف الطريق، مُزمعاً إيقافه ومَنْع حدوث ما لا يُحْمَدُ عقباه.

---

*) سلاح الكارابينييري، أو الدَّرَك، تأسّس في عام ١٨١٤ من قِبَل الملك فيتّوريو إيمانويل الأوّل، بهدف تزويد المملكة، التي كانت قد تأسّست لتوّها بعد انسحاب نابليون من إيطاليا، بقوّة عسكرية، تقوم أيضاً بدور الشرطة، على غرار الجندرمة الفرنسية.

ولكن بينوكيو، عندما لمح الدَّرَكي من بعيد يَسُدّ عليه الطريق، فكّر بتجاوزه، مباغتاً إيّاه من بين ساقَيْه، لكن خطّته فشلت.

الدَّرَكي، دون أن يتحرّك قيد أنملة من مكانه، أمسكه من أنفه (كان أنفاً هائلاً، وكان يبدو وكأنه مصنوع خصّيصاً لكي يُمسِكَ به الدَّرَك)، وأعاده بنفسه إلى جيبيتّو، الذي، لكي يؤدّبه، كان يريد أن يشدّ أذنه حالاً. لكنْ، تصوّروا موقفه عندما بحث عن أذنَيْه، ولم يجدهما: هل تعلمون لماذا؟ لأنه في أثناء لهفته في نَحْته، كان قد نسي صُنعهما.

عند هذا الحدّ، أمسكه من قفا رقبته، وبينما كان يقوده عائداً، قال له وهو يهزّ رأسه متوعّداً:

- فلنذهب إلى البيت، وسيكون حسابكَ عسيراً.

بينوكيو، حالما أيقن أنه سوف لن يفلتَ من العقاب، ألقى بنفسه على الأرض، ورفض متابعة المشي. في هذه الأثناء، هُرع الفضوليون والمتسكّعون، وتجمهروا حولهما.

كان هناك مَنْ يتفوّه بتعليقات لاذعة، ومن يُطلِقُ أحكاماً مُضلِّلة.

- يا للدمية المسكينة! – كان يقول البعض، -إنها مُحقّة في رفضها العودة إلى البيت! مَنْ يدري كيف سيضربها جيبيتّو، ذلك الرجل الشرير؟! ...

والآخرون كانوا يضيفون بخُبْث:

- جيبيتّو يبدو رجلاً طيّباً، ولكنه مُستبدّ حقيقي مع الأولاد! إذا تركوا تلك الدمية المسكينة بين يَدَيْه، فهو قادر تماماً على تقطيعها إرباً! ...

فضلاً عن ذلك، قالوا كثيراً، وفعلوا أكثر لغاية ما أطلق الدَّرَكي سراح

بينوكيو، واقتاد ذلك الرجل المسكين جيبيتّو إلى السجن. هذا الأخير، لعجزه الدفاع عن نفسه، كان يبكي كالعِجْلِ، وفي أثناء اقتياده إلى السجن، كان يتمتم وهو يشهق:

- يا للولد الضالّ! وأنا الذي تعذّبتُ كثيراً، لكي أجعلَ منه دمية صالحة! ولكن ذلك كان من واجبي! كان عليّ أن أفكّر بالأمر قبلاً! ...

ذاك ما حصل فيما بعد، إنها قصّة لا يمكن تصديقها، وسأرويها لكم في هذه الفصول اللاحقة.

* * *

IV

قصّة بينوكيو مع الجُدْجُدِ الناطق، حيث سنرى كيف أن الأولاد السيّئين يتبرّمون من توجيهات الأشخاص الذين يملكون خبرة أكثر منهم.

إذنْ، سأُخبركم، أيّها الأولاد، أنه بينما جيبيتّو المسكين كان قد اقتيد دون ذنب إلى السجن، ذلك الخبيث بينوكيو، بعد أن أفلت من قبضة الدَّرَكي، كان يركض عبر الحقول، لكي يعودَ بسرعة إلى البيت. وفي أثناء اندفاعه في الركض، كان يجتاز قفزاً مرتفعات عالية، أسيجة برقوق برّي، وحفَراً مليئة بالماء، تماماً مثل ما يمكن أن يقومَ به جَدْيٌ أو أرنب برّيّ، يطارده الصيّادون.

عندما وَصَلَ إلى قرب البيت، وَجَدَ المدخل مواراً. دفعه، وولج إلى الداخل، وحالما أحكم إغلاق المزلاج، ألقى بنفسه على الأرض، مطلقاً زفرة كبيرة من الارتياح.

ولكن ذلك الارتياح لم يدم طويلاً، لأنه سمع في الغرفة أحد ما يردّد:

- غْرِي – غْرِي – غْرِي!

- مَنْ هذا الذي يناديني؟ -قال بينوكيو خائفاً.

- أنا!

التفت بينوكيو، فرأى جُدْجُداً كبيراً، حيث كان يتسلّق الجدار ببطء.

- أخبرني، أيّها الجُدْجُد: ومَنْ تكون أنتَ؟

- أنا الجُدْجُد الناطق، وأعيش في هذه الحجرة منذ أكثر من مئة عام.

- ولكنْ، اعتباراً من اليوم، هذه الحجرة ملكٌ لي، قال بينوكيو، - وإذا كنتَ تريد أن تُسدي لي معروفاً حقيقياً، انصرفْ من هنا حالاً، حتّى دون أن تنظر خلفكَ.

- أنا سوف لن أتركَ هذا المكان، قبل أن أخبركَ حقيقة، لا يشكّ بها أحد.

- أخبرني إيّاها، إذنْ، ثمّ انصرفْ من هنا.

- ويلٌ لأولئك الأولاد الذين يتمرّدون على آبائهم، ويغادرون البيت الأبوي مندفعين وراء نزواتهم! سوف لن يجنوا الخير أبداً في هذا العالم، وعاجلاً أم آجلاً، سيندمون بمرارة على فِعْلتهم.

- غَنٍّ كما يحلو ويروق لكَ، يا عزيزي الجُدْجُد: لكنْ، أنا واثق من أنني سأغادر هذه المكان غداً فجراً، لأنه فيما لو بقيتُ هنا، سألقى مصير الأولاد الآخرين كلهم، أي أنهم سيرسلونني إلى المدرسة، وشئتُ أم أبيتُ، سأضطرّ لأن أدرسَ، وأنا، وليبقى هذا الأمر سرّاً بيننا، لا أملكُ أيّة رغبة في الدراسة، وأستمتع أكثر في الركض خلف الفراشات، وتسلّق الأشجار، والتقاط صغار العصافير من أعشاشها.

- يا للولد المسكين! ولكنْ، ألا تعرف أنه، بهذه الطريقة، عندما ستكبر، سوف تتحوّل إلى مغفّل كبير، وسوف تكون مثار سخرية للآخرين؟

- اخرسْ، لا فضَّ فوهكَ، أيّها الجُدْجُد المُمِلّ! - صَرَخَ بينوكيو.

ولكن الجُدْجُد، الذي كان صبوراً وحكيماً، بدلاً من أن يغضبَ من هذه البذاءة، تابع بالنبرة نفسها:

- وإذا كان لا يروقكَ الذهاب إلى المدرسة، لماذا لا تتعلّم حرفة ما، بما يكفيكَ لكي تكسب بشرف لقمة عيشكَ؟

- أتريد أن أفصحَ لكَ عن رأيي؟ - ردّ بينوكيو، الذي كان قد بدأ يفقد صبره. - من بين كل مِهَن العالم، لا توجد سوى مهنة واحدة يمكن بحقّ أن تُناسبني.

- وما هي هذه المهنة؟

- مهنة الأكل، الشرب، النوم، اللهو والتّسكّع من الصباح إلى المساء.

- استناداً إلى ما قُلتَه، - قال الجُدْجُد الناطق بهدوئه المعتاد، - كل أولئك الذين يمارسون هذه المهنة، ينتهون دائماً إمّا في الملجأ أو في السجن.

- حذار، أيّها الجُدْجُد المُمِلّ! ... إذا غضبتُ، فالويل لكَ!

- يا لبينوكيو المسكين! إنكَ بالفعل تثير شفقتي! ...

- ولماذا أثير شفقتكَ؟

- لأنكَ دمية، والأسوأ من ذلك، أنكَ تملك رأساً من خشب.

حالما سمع الكلمات الأخيرة، قَفَزَ بينوكيو من مكانه محتدّاً، تناول من المنضدة مطرقة خشبية، وقذف بها الجُدْجُد الناطق.

ربمّا كان لا يعتقد حتّى في النيل منه: لكنْ، لسوء الحظّ أصابه في رأسه بالضبط، إلى حدّ أن الجُدْجُد تمكّن بالكاد أن يصرخ: غْرِي – غْرِي – غْرِي، ومن ثمّ، بقي هامداً في مكانه وملتصقاً على الجدار.

* * *

V

بينوكيو جائع، ويبحث عن بيضة ليقوم بتحضير قرص عجّة، لكنْ، في اللحظة الحرجة، قرص العجّة يطير من النافذة.

في هذه الأثناء، بدأ الليل يخيّم، وكان بينوكيو لم يأكلْ شيئاً بعد، وبدأ يحسّ بلسعات في معدته شبيهة بلسعات الجوع.

والجوع عند الأولاد، عادة ما يتزايد بسرعة. وبالفعل، بعد دقائق قليلة، اللسعات تحوّلت إلى طُوَى، وخلال فترة بسيطة، تحوّلت إلى سَغَب فتّاك، خَوَاءٌ يُسمَع صراخه من بعيد.

هُرع بينوكيو المسكين فوراً إلى الموقد، حيث كان يوجد قِدْرٌ يغلي، وحاول أن يرفع الغطاء، لكي يرى ماذا كان يوجد بداخله، لكن القِدْرَ كان مرسوماً على الجدار. تصوّروا مدى خيبته. أنفه، الذي كان طويلاً بحدّ ذاته، أصبح أكثر طولاً بأربعة أصابع على الأقل.

عندئذ، بدأ يعدو في الحجرة، ويفتش في الجوارير كلها والخزائن كلها بحثاً عن قليل من الخبز، ولو كسرة من الخبز اليابس، فتات خبز، فضلات عَظْمٍ، خلّفها كلب، قليل من العصيدة المتعفّنة، حَسَك سمكة، نواة حبّة كرز، أو أيّ شيء يمكن مضغه، لكنه لم يجد شيئاً، أيّ شيء.

وفي هذه الأثناء، كان الجوع يزداد وطأة: وبينوكيو المسكين لم يكن يملك أيّ عزاء ما عدا التثاؤب: وكان تثاؤبه يمتدّ لفترات طويلة، إلى حدّ أن فمه، كان أحياناً يطال أذنَيْه. وبعد أن يتثاءب، كان يبصق وهو يشعر بأن معدته تكاد تذوي.

حينئذ، كان يقول وهو يبكي بيأس:

- الجُدْجُد الناطق كان مُحقّاً. لقد أخطأتُ في التّمرّد على أبي، وفي الفرار من البيت ... لو كان أبي هنا، قلّما كنتُ وجدتُ نفسي الآن أموت من التثاؤب! آه! يا له من مرض شنيع الجوعُ!

وهنا بدا له رؤيةُ شيء أبيضَ وكروي في كومة الزبالة، الذي كان يشبه كثيراً بيضة دجاجة. لم يستغرق أكثرَ من برهة في القيام بقفزة، وإلقاء نفسه فوقها. كانت بيضة بحقّ.

من المستحيل وصف بهجة بينوكيو: يجب أن نعرف كيف نتصوّرها. مُعتقداً بأنه ربمّا في حلم، كان يقلب البيضة بين يَدَيْه، يلمسها، ويقبّلها، وكان يقول وهو يلثمها:

- والآن كيف يجب أن أطهوَها؟ سأعمل منها عجّة بيض؟ ... كلا، من الأفضل طهوها في الوعاء! ... أو ربمّا ستكون ألذَّ طعماً لو قليتُها في المقلاة؟ أو عوضاً عن ذلك، ماذا لو سلقتُها قليلاً، وارتشفتُها؟ كلا، أعتقد أن أسرع طريقة هي الطهي في الصحن أو في المقلاة: بي رغبة عارمة لالتهامها!

وهبَّ فوراً إلى العمل. فوَضَعَ المقلاة فوق موقد مليء بالجمر المتّقد: وبدلاً من أن يسكبَ فيه زيتاً أو سَمْناً، صبَّ في المقلاة قليلاً من الماء: وعندما بدأ البخار يتصاعد من الماء، تاك! ... كَسَرَ البيضة، وتهيّأ لدَلْقها.

ولكنْ، بدلاً من البياض ومن الصفار، خَرَجَ من البيضة صوص مرح وظريف، الذي قال برزانة بالغة:

- ألف شكر، يا سيّد بينوكيو، لأنكَ وفّرتَ عليّ تعب كَسْر القشرة! إلى اللقاء، فَليقِكَ الرّبّ، وشكراً جزيلاً لضيافتكم!

وبعد أن نطق بهذه الكلمات، فَرَدَ جناحَيْه، اتّجه نحو النافذة المفتوحة، وطار بعيداً.

بينوكيو المسكين، بقي في مكانه مثل المسحور، بعيون مشدوهة، وبفاه فاغر، وقشور البيضة في يده. علاوة على ذلك، بعد أن استفاق من ذهوله، بدأ يبكي، يصرخ ويخبط قَدَمَيْه على الأرض من اليأس، وكان يقول منتحباً:

- مع ذلك، الجُدْجُد الناطق كان مُحقّاً! لو لم أهربْ من البيت، ولو أن أبي كان هنا، قلّما كنتُ وجدتُ نفسي الآن أموت من الجوع! آه! يا له من مرض شنيعٍ الجوعُ! ...

وبما أن معدته كانت تتابع تذمّرها أكثر من السابق، وكان لا يعرف كيف يُسكِتُها، فكّر بأن يخرجَ من البيت، وأن يَعرج على القرية المجاورة، أملاً في العثور على شخص مُحسن، يمكن أن يتصدَّق عليه ببعض الخبز.

* * *

VI

بينوكيو يغفو وقَدَماه على الموقد، ويستيقظ في صباح اليوم التالي وقَدَماه محترقتان تماماً.

كانت ليلة جهنّمية بحقّ. كانت تُرْعد بقوّة جامحة، تَبْرق كما لو أن السماء اضطرمت بالنار، وريح باردة تُصفّر، وعاصفة تُزمجر بغضب، وترفع سحابة عارمة من الغبار، مُرغمة أشجار الحقول على الصراخ والعويل.

كان بينوكيو يخاف كثيراً من الرعود والبروق: ولكن الجوع كان أقوى من الخوف: لهذا السبب واربَ مدخل الباب، انطلق نحو الطريق الذي تسلكه العربات، وبمائة قفزة، وَصَلَ إلى القرية، وهو يلهث، ولسانه خارج فمه، مثل كلب صيد.

لكنه وَجَدَ كل شيء قاتماً ومُوحِشاً. الدكاكين كانت مُغلقةً، أبوابُ ونوافذُ البيوت مُوصدة، ولا يوجد أحد في الشارع. كان يبدو وكأنه موطن الأموات.

حينئذ، مثبط من اليأس ومن الجوع، أمسك بمطرقة أحد الأبواب، وبدأ يقرعها بشكل متواصل، وهو يقول في داخله:

- لابدّ أن أحد ما سوف يطلّ من الباب.

وبالفعل، أطلّ عجوز يعتمر قلنسوتَه الليلية، الذي صَرَخَ بحنق:

- ماذا تريدون في هذه الساعة؟

- هل تتفضّلون، وتعطوني قليلاً من الخبز؟

- انتظرني هنا، وسأعود حالاً، -أجاب الرجل العجوز، مُعتقداً أن الأمر يتعلّق بواحد من أولئك الأولاد المشاغبين الذي يلهون خلال الليل بقَرْع أبواب البيوت، لكي يُزعجوا الناس المسالمين الذين ينامون باطمئنان.

بعد نصف دقيقة، فُتحت النافذةُ، وصوت العجوز نفسه نادى بينوكيو:

- احْمِ مؤخّرتَكَ، ولا تُبلِّلْ قُبَّعتَكَ.

بينوكيو نزع حالاً قبّعته الرثّة، وبينما كان يحاول حمايتها، أحس بسَيْل عارم من الماء، يتدفّق فوقه، حيث بلّله من رأسه حتّى أخمص قَدَمَيْه، كما لو أنه أصيبَ من الورود الذابلة.

رجع بينوكيو إلى البيت وهو مُبلَّل كصوصٌ، ومُنهَك من التعب ومن الجوع اللذَيْن كانا قد أخذا منه. وبما أنه كان لا يملك القوّة الكافية لكي يبقى منتصباً، جلس مسنداً قَدَمَيْه المبلولَتَيْن والمتّسخَتَيْن على موقد مليء بالجمر المتّقد.

وهناك غرق في النوم، وفي أثناء غفوته، القَدَمَان اللتان كانتا من الخشب، اضطرمتا بالنار، ورويداً رويداً تفحّمَتَا، وتحوّلَتا إلى رماد.

وبينوكيو كان يتابع نومه ويشخر، كما لو أن قَدَمَيْه هما لشخص آخر. أخيراً استيقظ مع ضوء النهار، لأن أحداً ما طرق على الباب.

- مَن الطارق؟ -سأل وهو يتثاءب ويفرك عينَيْه.

- أنا، -أجاب صوت من الخارج.

ذاك كان صوت جيبيتّو.

* * *

VII

جيبيتّو، الرجل المسكين، يعود إلى البيت، ويقدِّم لبينوكيو طعام الفطور الذي جلبه معه.

بينوكيو المسكين، الذي كان لا يزال يغلب عليه النعاس، لم يكن قد رأى بعد قَدَمَيْه، اللتَيْن كانتا قد احترقتَا تماماً: لهذا حالما سمع صوت أبيه، هبَّ من المقعد، لكي يهرَع، ويسحب المزلاج، ولكنْ، عوضاً عن ذلك، بعد أن ترنّح مرَّتَيْن أو ثلاثة، سَقَطَ بكل ثقله على الأرض.

وعندما سَقَطَ على الأرض، أصدر الضجّة نفسها التي يمكن أن تُصدِرَها حزمة من المغارف، بسقوطها من الطابق الخامس.

- افتح البابَ! -كان جيبيتّو في هذه الأثناء يصيح من الشارع.

- لا أستطيع، يا أبي، -كان يجيب بينوكيو وهو يبكي ويتمرّغ على الأرض.

- لماذا لا تستطيع؟

- لأنهم أكلوا قَدَمَيّ.

- ومَنْ أكل قَدَمَيْكَ؟

- القطّ، - قال بينوكيو، برؤيته القطّ الذي كان يلهو ببعض رقائق الخشب برجلَيْه الأماميَّتَيْن.

- افتحِ البابَ! - كرّر جيبيتو، - وإلاّ عندما أدخل سأريكَ أنا القطّ!

- لا أستطيع أن أقفَ على قَدَمَيّ، صدِّقني. يا لحظّي السيّئ! يا لحظّي السيّئ، لأنني سأضطر للمشي على ركبَتَيّ طيلة حياتي! ...

جيبيتّو، ظنّاً منه أن هذا النواح كله ليس سوى مقلب آخر من مقالب بينوكيو، فكّر جيّداً بأن يحسم الأمر، ومتسلّقاً الجدار، دَخَلَ إلى البيت من النافذة.

في البداية، كان بصدد توبيخه ومعاقبته: ولكنْ، فيما بعد، عندما رأى بينوكيو مستلقياً على الأرض، ودون قَدَمَيْن بحقّ، عندئذ شَعَرَ بالرأفة لحاله، ومُمسكاً به من رقبته، بدأ يُقبّله ويلاطفه بتملُّق بالغ، ثمّ قال له وهو يشهق بالبكاء:

- بينوكيو، يا ولدي! كيف أحرقتَ قَدَمَيْكَ؟

- لا أعرف، يا أبتي، ولكنْ، صدّقني، قضيتُ ليلة سيّئة جدّاً، وسوف أذكرُها طالما حييتُ. كانت ترعد، تومض، وأنا كنتُ أشعر بجوع شديد، وعندئذ قال لي الجُدْجُد الناطق: «أنتَ تستحقّ هذا، لقد كنتَ شرّيراً، وهذا يليق بكَ»، وأنا قلتُ له: «حذار، أيّها الجُدْجُد! ...»، وهو قال لي: «أنتَ دمية، وتملك رأساً من خشب»، وأنا قذفتُهُ بمطرقة خشبية، وهو قضى نحبه، ولكن الذنب كان ذنبه، لأنني لم أكن أريد أن أقضي عليه، الدليل على ذلك أنني وَضَعْتُ مقلاة على الجمر المتّقد في الموقد، ولكن الصوص هرب، وقال: «إلى اللقاء ... وشكراً لضيافتكم». والجوع كان يزداد شدّة، لهذا السبب ذاك العجوز الذي يعتمر قلنسوة الليل، قال لي وهو يطلّ من النافذة:

«احْمِ مؤخّرتكَ، ولا تُبلِّل قبّعتَكَ»، واندلق سيل من الماء على رأسي،

لأن طَلَبَ قطعة من الخبز ليس مخجلاً، أليس كذلك، يا أبتي؟ رجعتُ إلى البيت فوراً، ولأنني كنتُ لا أزال أشعر بجوع شديد، وَضَعْتُ قَدَمَيّ على الموقد، لكي أجفّفهما، وها أنتُم رجعتُم، ووجدتموهما محروقَتَيْن، وبعد هذا كله، لا أزال أشعر بالجوع، ولم يعد لي قَدَمان! آه! ... آه! ... آه! ...

وبدأ بينوكيو المسكين يبكي ويصرخ بقوّة، إلى حدّ أن نحيبه كان يُسمَع من مسافة خمسة كيلومترات.

جيبيتّو، الذي كان قد فهم شيئاً واحداً فقط من ذلك الحديث المشتّت كله، أي أن بينوكيو كان يكادُ يُقضى عليه من الجوع الشديد، أخرج من جيبه ثلاث حبّات من الأجاص، وقدّمها له قائلاً:

- حبّاتُ الأجاص الثلاث هذه، كانت مخصّصة لفطوري، لكنني سأقدّمها لكَ عن طيب خاطر. كُلْها، وأتمنّى أن تسدَّ جوعكَ.

- إذا كنتَ تريدُني أن آكلَها، فَقَشِّرْها لي من فضلكَ.

- أقشِّرها؟ - ردّ جيبيتّو مستغرباً. - قلّما كنتُ قد تخيّلتُ أبداً، يا بينوكيو، أنكَ تملك فماً صغيراً إلى هذا الحدّ، وأنكَ تشعر بالقرف. هذا أمر سيّئ! في هذا العالم، منذ الصغر، يجب التآلف مع اللقمة، وأن نتعلم أن نأكل كل شيء، لأننا لا نعرف أبداً ماذا يمكن أن يصادفنا. الأمثلة كثيرة جدّاً! ...

- أنتم تحسنون القول، يا أبي، -أضاف بينوكيو، - ولكنْ، أنا سوف لن آكل أبداً أيّة فاكهة، إذا لم تكن مُقشَّرة، أنا لا أحتمل القشور.

وذاك الرجل الطّيّب جيبيتّو، متسلّحاً بالصبر، أخرج سكّينه وقشّر حبّات الأجاص الثلاث، ثمّ وَضَعَ القشور على زاوية الطاولة.

بينوكيو، بعدما التهم بلقمَتَيْن حبّة الأجاص الأولى، استعدّ لرمي لُبّ الثمرة، ولكن جيبيتّو أمسك بذراعه قائلاً له:

- لا ترمِهَا: كل شيء في هذا العالم يمكن أن يكون له فائدة ما.

- ولكنْ، صدِّقوني، أنا لا آكل اللُبّ! - صَرَخَ بينوكيو وهو يتلوّى كالأفعى.

- مَنْ يدري؟! الأمثلة كثيرة! ... - كرَّر جيبيتّو، دون أن يحتدّ.

والحال، أن لبوب الثمرات الثلاث، بدلاً من أن تُرمَى من النافذة، وُضِعَت على زاوية الطاولة برفقة القشور.

بعد أن أكل، أو بالأصحّ، بعد أن التهم حبّات الأجاص الثلاث، بينوكيو تثاءب طويلاً، وقال شاكياً:

- أنا لا أزال جائعاً!

- ولكنْ، يا بنيّ، أنا لم أعد أملك شيئاً لأقدِّمهُ لكَ.

- لا شيء البتّة؟

- أملك هذه القشور واللبوب فحسب.

- فليكن! - قال بينوكيو، - إذا لم يكن يوجد شيء آخر، سوف آكل قشرة.

تناول قشرة، وبدأ يمضغها. في البداية زمّ فمه قليلاً، ولكنْ، فيما بعد، بدأ يتناولها الواحدة تلو الأخرى، إلى أن أتى عليها جميعها: وبعد القشور، أكل اللبوب أيضاً، وبعدما انتهى من أكل كل شيء، خبط يَدَيْه على جسمه مسروراً، وقال بغبطة:

- أشعر بنفسي مرتاحاً الآن!

- انظرْ، إذنْ، - علّق جيبيتّو، - أنا كنتُ محقّاً عندما قلتُ لكَ إنه لا يجب أن تجعل فمكَ يعتاد كثيراً، لا على المأكولات الفخمة جدّاً، ولا على تلك اللذيذة جدّاً. يا عزيزي، لا نعرف أبداً ذاك الذي يمكن أن يصادفنا في هذا العالم. الأمثلة كثيرة جدّاً! ...

* * *

VIII

جيبيتّو يعيدُ صناعة قَدَمَي بينوكيو، ويبيعُ معطفَهُ كي يشتريَ له كتاب تعليم الأبجدية.

حالما تخلّص بينوكيو من وطأة الجوع، بدأ فوراً ينتحب ويشكو، لأنه كان يريد زوجاً جديداً من القَدَمَيْن.

ولكن جيبيتّو، كي يعاقبَهُ على طيشه، تَرَكَه ينتحب ويصرخ لمدّة نصف نهار: ثُمّ قال له:

- ولماذا يجب عليّ أن أُصلح قَدَمَيْكَ؟ ربّما كي أراكَ تهرب ثانية من بيتكَ؟

- أعِدُكم، - قال بينوكيو وهو يشهق بالبكاء، - أنني من اليوم فصاعداً، سأكون ولداً صالحاً ...

- الأولاد كلهم، – ردّ جيبيتّو، - عندما يريدون الحصول على شيء ما، يردّدون مثل هذا الكلام.

- أعِدكم بأنني سوف أذهب إلى المدرسة، سوف أدرس، وسوف أكون من الناجحين ...

- الأولاد كلهم، عندما يريدون الحصول على شيء ما، يكرّرون القصّة نفسها.

- ولكنْ، أنا لستُ مثل الأولاد الآخرين! أنا أفضل من الجميع، وأقول الحقيقة دائماً. أعِدكم يا أبي، أنني سوف أتعلّم مهنة ما، وسوف أكون عزاءَكُم وسَنَدكُم في شيخوختكم.

جيبيتّو، رغم أنه كان يتصنّع الصلابة، كانت عيناه قد اغرورقتا بالدموع، وقلبه مغتمّاً لرؤية بينوكيو المسكين في تلك الحالة التي تبعث على الشفقة. لم يتفوّه بكلمات أخرى، بل تناولَ أدوات المهنة وقطعَتَيْن من الخشب الجافّ، وانهمكَ بهمّة كبيرة في العمل.

وفي أقلّ من ساعة، كانت القَدَمَان جاهزَتَيْن. قَدَمَان سريعَتَان، ضامرَتَان ومشدودَتَان، كما لو أنهما منحوتَتَان من قِبَل فنّان عبقري.

عندئذ قال جيبيتّو لبينوكيو:

- أغمضْ عينيْكَ، ونَمْ!

وبينوكيو أغمضَ عينَيْه، وتصنَّعَ النوم. وفي الوقت الذي كان يتصنّع فيه النوم، جيبيتو، باستعمال قليل من الصّمغ المُذاب في قشرة بيض، لصقَ القَدَمَيْن في مكانهما. لصقهما بطريقة جيّدة، حيث كانت لا تُشاهَد حتّى علامات الدَّمْج.

حالما أحسّ بينوكيو أنه يملك قَدَمَيْن، قَفَزَ من الطاولة، حيث كان يرقد، وبدأ يقوم بألف حركة وألف شقلبة، كما لو أنه فَقَدَ صوابه من الفرح.

- لكي أكافئَكُم لما قمتُم به من أجلي، -قال بينوكيو لأبيه، -أريد أن أذهب حالاً إلى المدرسة.

- أحسنتَ، يا بني!

- ولكنْ، لكي أذهب إلى المدرسة، أنا بحاجة إلى بعض الألبسة.

جيبيتّو، الذي كان فقيراً، ولم يكن يملك في جيبه قرشاً واحداً، قام عندئذ بصُنع بدلة له من الورق المزهّر، زوج أحذية من لحاء الشجر، وقبّعة من لبّ الخبز.

بينوكيو ركض فوراً، ليرى نفسه في وعاء مليء بالماء، وبقي مسروراً من نفسه لدرجة قال فيها لوالده:

- أبدو كسيّد تماماً!

- حقّاً، - ردّ جيبيتو، - احفظْ هذا جيّداً في رأسكَ، ليست البدلة الجميلة هي التي تصنع السّيّد، بل البدلة النظيفة.

- في هذا الصَّدَد، - أضاف بينوكيو، - لكي أذهب إلى المدرسة لا يزال ينقصني شيء ما: بل ينقصني ما هو ضروري أكثر من أيّ شيء آخر.

- ماذا؟

- ينقصني كتاب تعليم الأبجدية.

- أنتَ محقّ، ولكنْ، ما العمل للحصول عليه؟

- سهل جدّاً: تذهب لبائع كُتُب، وتشتريه.

- والنقود؟

- أنا لا أملك نقوداً.

- وأنا أيضاً، - أضاف العجوز الطّيّب بنبرة حزينة.

وبينوكيو، رغم أنه وَلَدٌ مَرِحٌ، غرق في الحزن هو أيضاً: لأن الفقر، عندما يكون مُدقعاً، يفهمه الجميع، حتّى الأولاد.

- لا بأس! - صَرَخَ جيبيتّو بغتة، وهو ينتصب على قَدَمَيْه، ومرتدياً معطفه القطني القديم الذي تغطّيه الرُّقَع، خَرَجَ مسرعاً من البيت.

بعد قليل، رجع إلى البيت: وبعودته كان يحمل بين يَدَيْه كتاب تعليم الأبجدية لابنه، ولكن المعطف كان قد اختفى. الرجل المسكين كان بالقميص فقط، وكان الثلج يتساقط في الخارج.

- أين معطفكَ، يا أبي؟

- لقد بعتُهُ.

- ولماذا بعتَهُ؟

- لأنه كان ثقيلاً، ويجعلني أشعر بالحَرّ.

بينوكيو فَهِمَ حالاً مغزى إجابته، وبما أنه لم يتمكّن من كَتْم الانفعال في قلبه الطيّب، قَفَزَ على رقبة أبيه، وبدأ يُقبّل وجنَتَيْه.

* * *

IX

بينوكيو يبيعُ كتاب تعليم الأبجدية كي يذهبَ ويشاهدَ مسرح القراقوز.

حالما توقّف هطول الثلج، خَرَجَ بينوكيو للذهاب إلى المدرسة وهو يتأبّط كتاب تعليم الأبجدية الجديد. وفي أثناء الطريق، كان يتخيّل في رأسه ألف قصّة، ويبني آلاف القلاع الرملية، كل واحدة أجمل من الأخرى.

وكان يقول مُحدِّثاً نفسه:

- حالما أصل إلى المدرسة، أريد أن أنتهيَ فوراً من تعلّم القراءة، ثمّ سأتعلّم الكتابة غداً، وبعد غد، سأتعلّم الحساب. ومُستغلاً مهارتي، سوف أكسب نقوداً كثيرة، وبالنقود الأولى التي سأكسبها، سأخيط لأبي فوراً معطفاً من الجوخ. لكنْ، أيّ جوخ؟ سأُحيك قماشه من الذَّهَب والفضّة، وسأجعل أزراره من الألماس. في الحقيقة، إن ذلك الرجل المسكين يستحقّ أكثر من ذلك، ففي النهاية، كان هو الذي باع معطفه، لكي يُرسلني إلى المدرسة ... في هذا البرد! مَنْ يقوم بمثل هذه التضحيات، هم الآباء فقط! ...

بينما كان يردّد بانفعال هذه الكلمات، تراءى له وكأنه يسمع عزف مزمار

وقرع طبول قادمَيْن من بعيد: بي، بي، بي - دوم، دوم، دوم - بي، بي، بي -دوم، دوم، دوم.

توقّف وبدأ يصغي إلى تلك الأصوات التي كانت تصل إلى مسامعه من آخر تقاطع طريق طويل، الذي كان يقود إلى بلدة صغيرة تقع على شاطئ البحر.

- ما هي هذه الموسيقى؟ للأسف، أنا يجب أن أذهبَ إلى المدرسة، لولا ذلك ...

وبقي محتاراً. وعلى أيّة حال، كان عليه أن يتّخذ قراراً ما: إمّا الذهاب إلى المدرسة، أو الإصغاء إلى عزف المزمار.

- سأذهب اليوم لسماع عزف المزمار، وغداً سأذهب إلى المدرسة: هنالك دائماً متّسع من الوقت لارتياد المدرسة، -قال أخيراً ذلك الصبي الطائش وهو يهزّ كتفَيْه بلا مبالاة.

ونفّذ قراره في الحال، إذ سَلَكَ الطريق الجانبية، وبدأ يركض بسرعة. وكلّما كان يركض، كلّما كان يسمع بوضوح صوت المزامير والطبول: بي، بي، بي - دوم، دوم، دوم - بي، بي، بي -دوم، دوم، دوم.

بغتة وَجَدَ نفسه في وسط ساحة تغصّ بأناس كانوا يحتشدون حول خيمة كبيرة ذات ألوان زاهية.

- ما هي هذه الخيمة؟ - سأل بينوكيو، موجّهاً كلامه إلى صبي من البلدة، كان يقف هناك.

- اقرأ اليافطة، وستعرف ما هي هذه الخيمة.

- لكنتُ قرأتُها بطيبة خاطر، ولكنْ، اليوم بالذات، لا أعرف القراءة.

- أحسنتَ، يا أيّها الغبي! إذنْ، سأقرؤها أنا لكَ. إن ما هو مكتوب في تلك اليافطة بأحرف كبيرة ملوّنة بالأحمر القاني هو: مسرح القراقوز الكبير.

- وهل بدأ عرض الكوميديا(*) منذ وقت طويل؟

- العرض سيبدأ الآن.

- وكم سعر تذكرة الدخول؟

- أربع ليرات.

بينوكيو الذي كان مأخوذاً من حمّى الفضول، وَضَعَ جانباً كل رزانته، وقال دون حياء لمخاطبه:

- هل تُقرضني أربع ليرات ليوم غد؟

- سأُقرضكَ إيّاهم بكلّ طيبة خاطر، ولكنْ، اليوم بالذات، لا أستطيع أن أُقرضَكَ إيّاهم، -أجاب الصبي ساخراً منه.

- سأبيعكَ سترتي، بالمقابل، - قال بينوكيو.

- ماذا تريدني أن أفعلَ بسترة من الورق المُزهّر؟ إذا هطل المطر فوقها، يصبح من المحال نزعها عن الجسم.

- أتريد شراء حذائي؟

- حذاؤكَ لا ينفع سوى لإشعال النار.

- كم تدفع لي مقابل القبّعة؟

---

*) الكوميديا: مسرحية هزلية.

- صفقة جيّدة بحقّ! قبّعة من لبّ الخبز! ستكون مرتعاً جيّداً للفئران!

أحسّ بينوكيو أنه في مأزق، وكان على وشك القيام بعرض أخير، لكن الشجاعة خذلتْه. كان قد أصبح فريسة للتردّد ووَخْز الضمير. في النهاية قال:

- أتعطيني أربع ليرات مقابل كتاب تعليم الأبجدية الجديد هذا؟

- أنا أكبر سنّاً منكَ، ولا أشتري شيئاً من الأولاد، - قال له مخاطبه الصغير، الذي كان أكثر نُضْجاً منه.

- أنا أدفع لكَ أربع ليرات مقابل كتاب تعليم الأبجدية، - صَرَخَ بائع ألبسة مستعملة، الذي كان يصغي لمحادثتهما.

وتمّ بَيْع الكتاب في الحال، مع أن ذلك الرجل الطّيّب جيبيتّو كان قد بقي في البيت، يقي نفسَهُ من البرد بالقميص فقط، لكي يشتريَ كتاب تعليم الأبجدية لابنه!

* * *

X

الدمى المُتحرِّكة تتعرّف على شقيقها بينوكيو وتُقيم له حفلة كبيرة، ولكنْ، في اللحظة الحاسمة، يخرج مُحرِّك شخوص العرائس مانجافوكو، وبينوكيو يواجه موقفاً، يُعرِّض حياتَهُ للخطر.

عندما دَخَلَ بينوكيو إلى مسرح العرائس، وَقَعَ حادث أدّى لبعض الفوضى.

يجدر التنويه أن الستار كان قد رُفِعَ، وأن عرض الكوميديا كان قد بدأ لتوّه.

كان يُشاهد على خشبة المسرح أرليكينو وبولتشينيللا(*)، اللذان كانا يتشاجران فيما بينهما، وحسب العادة، كانا يُعطيان الانطباع أنهما بين لحظة وأخرى سيفتكان ببعضهما بعضاً.

المتفرّجون الذين يتابعون المشهد باهتمام، كانوا يشعرون بالألم من

*) Pulcinella وArlecchino، شخصيّتان هزليّتان من مسرح الدمى (أو القراقوز)، ظهرتا لأوّل مرّة في إيطاليا في منتصف القرن الخامس عشر.

شدّة القهقهات، وهم يصغون إلى المشاحنات بين تلك الدميَتَيْن اللتَيْن كانتا تتبادلان الذّمّ والقدح بمصداقية عالية، كما لو أنهما إنسانان عاقلان.

فجأة، بعد برهة من التردّد، توقّف أرليكينو عن التمثيل، التفت نحو الجمهور، ثمّ أشار بيده إلى شخص، كان يقف في مؤخّرة الصالة، وبدأ يصرخ بنبرة مأساوية:

- يا لمعجزة السماء! هل أنا في حلم؟ أم في يقظة؟ هل ذاك الذي يقف في الأسفل هو بينوكيو! ...

- إنه بينوكيو حقّاً! – صَرَخَ بولتشينيللا.

- إنه هو بالذات! – صَرَخَت السّيّدة روزأَوْرا، متدخّلة في الحوار من مؤخّرة المشهد.

- إنه بينوكيو! إنه بينوكيو! – صَرَخَت الدمى المُتحرّكة بصوت واحد وهي تندفع من الكواليس.

- إنه بينوكيو! شقيقنا بينوكيو! عاش بينوكيو.

- بينوكيو، اصعدْ على خشبة المسرح – صَرَخَ أرليكينو، – تعال، وألقِ بنفسكَ بين أحضان أخوتكَ المصنوعين من الخشب!

أمام هذه الدعوة الحميمة، وَصَلَ بينوكيو بقفزة واحدة إلى المقاعد الأمامية، وبقفزة أخرى، حطّ على رأس قائد الأوركسترا، ومن هناك، وثب إلى خشبة المسرح.

إنه من المستحيل تصوُّر لحظات العناق، ليّ الرقاب، قرصات الصداقة، ونطحات الأخوّة الحقيقية والصادقة التي تلقّاها بينوكيو من الحشد الجارف لممثّلي وممثّلات تلك الفرقة الدرامية – النباتية.

كان بلا شكّ استقبالاً مؤثّراً: ولكن المتفرّجين المتواجدين في الصالة، عندما لاحظوا أن العرض قد توقّف، فَقَدُوا صبرهم، وبدؤوا يصرخون:

- نريد الكوميديا، نريد الكوميديا!

صَرَخَات ذَهَبَت سدى، لأن الدمى المُتحرّكة، بدلاً من أن تتابعَ أداء أدوارها، ضاعفت الفوضى والصراخ، ورَفَعَت بينوكيو على أكتافها، وسارت به منتصرة تحت أضواء المسرح.

عندئذ خَرَجَ مُحرِّك الدمى، وهو رجل قبيح إلى حدّ أنه كان يزرع الرعب في النَّفْس لمجرّد النَّظَر إليه. كان يملك لحية رثّة سوداء، كأنها شخبطة عشوائية بالقلم، وطويلة لدرجة أنها كانت تنزل من ذقنه إلى الأرض: يكفي أن نذكر أنه، عندما يمشي، كان يدوسها بقَدَمَيْه. كان فمه واسعاً كالتّنّور، وعيناه كانتا تبدوان وكأنهما قنديلان من الزجاج الأحمر، يشعّ من خلفهما ضوء ساطع، وهو يهزّ بيده سوطاً كبيراً، مصنوعاً من ثعابين وذيول ثعالب، ضُفرت معاً.

بظهور مُحرِّك الدمى غير المُنتظَر، سكت الجميع: لا أحد كان يتنفّس، وكان يُمكن سماع حفيف أجنحة ذبابة. الدمى المسكينة، من الذُّكُور ومن الإناث، كنّ يرتجفنَ مثل كومة من الأوراق اليابسة.

- لماذا قُمْتَ بزرع الفوضى في مسرحي؟ – سأل مُحرِّك الدمى بينوكيو، بصوت وحش، أصيب بجرح بالغ في رأسه.

- صدِّقني، يا سيّدي المبجّل، لا ذنب لي في الأمر! ...

- كفى! سنتحاسب هذا المساء.

وفي الواقع، بعد انتهاء تقديم العرض الكوميدي، ذَهَبَ مُحرِّك الدمى

إلى المطبخ، حيث كانوا قد أعدّوا له خروفاً سميناً على سيخ، كان يدور ببطء فوق النار. وبما أنه كان ينقصهم الحطب، لكي ينتهوا من شَيّه، نادى أرليكينو وبولتشينيللا، وقال لهما:

- اجلبا لي تلك الدمية التي ستجدونها مُعلّقة على المسمار. تبدو لي دمية مصنوعة من خشب جافّ تماماً، وأنا واثق من أننا إذا ما ألقيناها في النار، سنحصل على لهب ملائم تماماً للشواء.

في البداية، أرليكينو وبولتشينيللا تردَّدا قليلاً، ولكنْ، بتملّكهما الخوف من النظرات الشريرة لوَليّ أمرهما، أطاعا: وبعد قليل، عادا إلى المطبخ وهما يحملان بينوكيو المسكين، الذي كان يتلوّى بين أيديهما مثل سمك الأنْقَلَيْس خارج الماء، ويصرخ بيأس:

- أنقدني، يا أبي! لا أريد أن أموتَ، لا أريد أن أموتَ! ...

* * *

XI

مانجافوكو يعطس، ويعفو عن بينوكيو، الذي يدافع عن صديقه أرليكينو، لينقذه من الموت.

مُحرِّك الدمى مانجافوكو (آكل النار) الذي كان يبدو رجلاً مخيفاً، لا أنكر ذلك، وخاصّة بتلك اللحية السوداء التي كانت تغطّي صدره كله ورجلَيْه كالمريول، إلاّ أنه في أعماق نفسه، لم يكن رجلاً سيّئاً. والدليل على ذلك، أنه عندما ألقوا ببينوكيو المسكين أمامه، وهو يتخبّط بكل قواه، ويصرخ "لا أريد أن أموتَ، لا أريد أن أموتَ!"، تأثّر كثيراً، وأحسّ بالإشفاق عليه، وبعد أن صمت لفترة، لا بأس بها، في النهاية، لم يتحمّل أكثر، وخَرَجَتْ منه عطسة قوية.

أرليكينو، الذي كان لغاية تلك اللحظة حزيناً ومُنطوياً على نفسه مثل شجرة الصفصاف البابلي، تهلَّلت أساريره، وانحنى نحو بينوكيو، ثمّ همس بصوت خافت:

- أخبار جيّدة، يا أخي. لقد عطس مُحرِّك الدمى، وهو ما يشير إلى أنه أشفق عليكَ، لقد نجوتَ حتماً.

هنا يجب التنويه أنه، بينما الرجال كلّهم، عندما يُحسّون بالعطف تجاه شخص ما، إمّا يذرفون الدموع، أو على الأقلّ، يتصنّعون تجفيف عيونهم،

بينما مانجافوكو كان يعطس في كل مرّة يشعر فيها بعطف حقيقي تجاه أحد ما. كان أسلوباً مثل غيره، وكان يستخدمه، لكي يكتشف الآخرون رقّة قلبه.

بعد أن عطس مُحرِّك الدمى، صَرَخَ في وجه بينوكيو متصنِّعاً القسوة:

- كفى بكاء! نحيبكَ جعلني أشعر بغصّة في جوف معدتي ... أشعر بوجع حادّ، حيث تقريباً ... تقريباً ... إتشي! ... إتشي! – وقام بعطسَتَيْن أخرَيَيْن.

- يرحمكم الله! – قال بينوكيو.

- شكراً! هل أمّكَ وأبوكَ على قيد الحياة؟ - سأله مانجافوكو.

- أبي نعم، أُمّي لم أعرفْها قطّ.

- مَنْ يدري حجم الغَمِّ الذي كان سيشعر به أبوكَ العجوز، لو تركتُهم يُلقون بكَ بين تلك الجمرات المتّقدة! يا للعجوز المسكين! أنا أرثي لحاله! ... إتشي، إتشي، إتشي، – وقام بثلاث عطسات أخرى.

- يرحمكم الله! – قال بينوكيو

- شكراً! من جهة أخرى، يجب أن يُرثى لحالي أيضاً، لأنه، كما ترى، لم أعد أملكُ حطباً لكي أُنهي شَيّ الخروف، وأنتَ، في الحقيقة، لكنتَ ساعدتَني كثيراً في هذا الشأن! ولكنني تأثّرتُ لحالكَ، ولم يبقَ أمامي سوى أن أتحلّى بالصبر. إنما عوضاً عنكَ، سأُلقي في الجمر أحد أفراد فرقتي ... إيه، يا حُرّاس!

بسماع هذا الأمر، ظهر فوراً حارسان من الخشب، طويلا القامة، ضامران، بقبّعاتهما ذات الشعلة، وهما يمتشقان سيفَيْهما.

عندئذ قال لهما مُحرِّك الدمى بصوت متحشرج:

- أمسكوا أرليكينو ذاكَ، أوثقوه جيّداً، ثمّ ألقوا به إلى النار، لكي يحترق. أريد أن يكون خروفي مَشوياً جيّداً!

تصوّروا حال أرليكينو المسكين! انتابه خوف عارم. جعلت رجلاه تنثنيان، ويسقط منكبّاً على وجهه.

حالما رأى بينوكيو ذلك المشهد الذي يُمزِّق القلوب، ذَهَبَ، وألقى بنفسه تحت قَدَمَي مُحرِّك الدمى وهو يذرف دموعاً غزيرة، بلّلت شعيرات لحيته الطويلة، ثمّ بدأ يقول بصوت مُلوّع:

- الرحمة، يا سيّدي! ...

- لا يوجد سادة هنا! ... ردَّ بحزم مُحرِّك الدمى.

- الرحمة، يا أيّها الفارس! ...

- لا يوجد فرسان هنا! ...

- الرحمة، يا أيّها السّيّد النبيل! ...

- لا يوجد سادة نبلاء هنا!

- الرحمة، يا أيّها المُبجّل! ...

عندما سمع مُحرِّك الدمى لقب التفخيم، زمَّ فمه فوراً، وأصبح بغتة أكثر إنسانية، وأكثر ميلاً للتفاوض. قال لبينوكيو:

- حسناً، ماذا تريد منّي؟

- أطلب العفو لأرليكينو المسكين! ...

- هنا لا يوجد مجال للعفو. إذا كنتُ قد وفَّرتُكَ، فيجب أن أضعَهُ هو في النار، لأنني أريد أن يكونَ خروفي مَشوياً جيّداً.

- في هذه الحال، - صَرَخَ بينوكيو بحزم، ناهضاً على قَدَمَيْه، ومُلقياً بعيداً قبّعته المصنوعة من لبّ الخبز، – في هذه الحال، أعرف ما هو واجبي. إلى الأمام، أيّها السادة الحُرّاس! اربطوني، وألقوا بي بين ألسنة اللهب تلك. كلا، ليس من العدل أن أتركَ صديقي الوفيّ، أرليكينو المسكين، أن يموتَ من أجلي! ...

هذه الكلمات، التي نُطِقَتْ بصوتٍ عالٍ وبنبرة بطولية، جعلت الدمى الأخرى كلّها تنخرط في البكاء. الحُرّاس أنفسهم، رغم أنّهم من الخشب، كانوا يبكون مثل خراف صغيرة.

مانجافوكو، في البداية، بقي قاسياً وجامداً مثل قطعة من الجليد: ولكنْ، فيما بعد، رويداً رويداً، بدأ هو الآخر يتأثّر ويعطس. وبعد أربع أو خمس عطسات، فَتَحَ ذراعَيْه بحنان، وقال لبينوكيو:

- أنتَ ولد طيّب جدّاً! تعال إلى هنا، وامنحني قبلة.

بينوكيو ركض حالاً، وتسلّق لحية مُحرِّك الدمى مثل السنجاب، وطبع قبلة جميلة على ذروة أنفه.

- إذنْ، لقد عفوتَ عنّي؟ -سأل أرليكينو المسكين، بصوت يكاد لا يُسمع.

- لقد عفوتُ عنكَ! – أجاب مانجافوكو: ثمّ أضاف متحسّراً وهو يهزّ رأسه: – ليس باليد حيلة! هذا المساء سأكتفي بأكل الخروف نيّئاً تقريباً، ولكنْ، في المرّة القادمة، الويل لمَنْ سيحين دوره! ...

بإشاعة خبر العفو، هُرعت الدمى إلى خشبة المسرح، وأضاءت الأنوار والثريّات، كما في ليلة خاصّة، ثمّ بدأت تقفز وترقص. حلّ الفجر، وهنّ لا يزلنَ على تلك الحال.

* * *

XII

مُحـرِّك الدمـى مانجافوكـو يهـدي خمـس ليـرات ذهبيـة إلـى بينوكيـو، لكـي يعطيهـا إلـى أبيـه جيبيتّـو: وبينوكيـو، عوضـاً عـن ذلـك، يترك القـطّ والثعلـب يخدعانه ويذهـب بصحبتهمـا.

في اليوم التالي، مانجافوكو نادى بينوكيو جانباً، وسأله:

- ما اسم أبيكَ؟

- جيبيتّو.

- وما هي مهنته؟

- إنه يمارس مهنة الفقر.

- هل يكسب كثيراً؟

- يكسب كثيراً بما يكفيه، لكي لا يملك سنتاً واحداً في جيبه. تصوّر، لكي يشتري لي كتاب تعليم الأبجدية، اضطرّ لبَيْع المعطف الوحيد الذي يملكه: ما عدا كونه مهترئاً، كانت تغطّيه الرُّقَع.

- يا للبائس المسكين! أكاد أُشفق عليه. هاك خمس ليرات ذهبية. اذهبْ حالاً، واجلبها له، وبلّغه تحياتي.

بينوكيو، كما من السهل تصوُّره، شكر مُحرِّك الدمى كثيراً، وعانق دمى الفرقة والحرّاس جميعهم أيضاً، ثمّ بدأ مسيرة العودة نحو البيت، والدنيا تكاد لا تسعه من الغبطة.

ولكنْ، لم يكن قد قطع بعد مسافة نصف كيلومتر، عندما التقى في الطريق بثعلب أعرج من قَدَمه، وقطٌ ضرير، حيث كانا يذهبان بعيداً بعيداً وهما يتساعدان فيما بينهما كصديقَيْن في البليّة. الثعلب الأعرج كان يمشي مستنداً على القطّ، والقطّ الضرير كان يترك للثعلب أمر قيادته.

- صباح الخير، يا بينوكيو، - قال له الثعلب، وهو يُحيّيه بأدب.

- كيف تعرف اسمي؟ - سأل بينوكيو.

- أعرف أباكَ جيّداً.

- أين قابلتَهُ؟

- لقد قابلتُهُ يوم أمس أمام باب بيته.

- وماذا كان يفعل؟

- كان يرتدي قميصاً، ويرتعد من البرد.

- يا لأبي المسكين! ولكنْ، بعون الله، سوف لن يرتعدَ من البرد بعد الآن! ...

- لماذا؟

- لأنني أصبحتُ سيّداً غنياً.

- هل أنتَ سيّد غنيّ؟ - قال الثعلب، وأطلق ضحكة فظّة، تنمّ عن السخرية: والقطّ كان يضحك بدوره، ولكي لا يجعلَهُ يشعر بذلك، كان يُمسِّد شاربَيْه بقَدَمه الأمامية.

- لا أجد مُبرّراً لسخريتكما، - صَرَخَ بينوكيو غاضباً. - ويؤسفني جدّاً أن أجعلَ اللعاب يسيل من أفواهكما، لأن هذه القطَع، فيما إذا كنتُم تفقهون في هذه الأمور، هي خمس قَطَع من العملة الذَّهَبيَّة الرّنّانة.

وأخرج قِطَع النقود التي تلقّاها كهدية من مانجافوكو.

أمام الرنين المغري لتلك النقود، مَدّ الثعلب، كَرَدّ فعل غير إرادي، قَدَمه التي كانت تبدو متيبّسة، والقطّ فَتَحَ كلتا عينَيْه، اللتَيْن بدتا كقنديلَيْن أخضرَيْن، ولكنه أغمضهما فوراً، حتّى إن بينوكيو لم يلحظ ذلك.

- والآن، - سأله الثعلب، - ماذا تريد أن تفعل بهذه النقود؟

- قبل كل شيء، - أجاب بينوكيو، - أريد أن أشتريَ معطفاً جديداً لأبي، منسوجاً من خيوط الذَّهَب والفضّة، وبأزرار من الألماس: وبعد ذلك، أريد أن أشتريَ لنفسي كتاباً لتعليم الأبجدية.

- لكَ؟

- نعم، لأنني أريد أن أذهب إلى المدرسة، وأن أدرسَ بجدٍّ.

قال الثعلب:

- انظرْ إليّ! بسبب شغفي الأحمق للدراسة فَقَدْتُ إحدى ساقَيّ.

قال القطّ:

- انظرْ إليّ! بسبب الدراسة الحمقاء فَقَدْتُ بَصَرَ عينَيّ الاثنَتَيْن.

في تلك الأثناء، أطلق عندليب أبيض كان متكوّراً على نفسه في سياج الطريق صفرته المعهودة، ثمّ قال:

- بينوكيو، لا تُصغِ إلى نصائح الأقران السيّئين، وإلاّ ستندم.

يا ليت العندليب المسكين لم ينطقْ بتلك الكلمات! القطّ، بقفزة بارعة، هجم عليه، ودون أن يتركَ له حتّى الفرصة، لكي يتأوّه، جعله لقمة سائغة، بريشه وعَظْمه.

بعد أن التهم العندليبَ، ونظّف فمه، أغلق القطّ عينَيْه مجدّداً، وعاد ضريراً كما كان من قبل.

- يا للعندليب المسكين! – قال بينوكيو للقطّ، - لماذا عاملتَهُ بهذه القسوة؟

- لقد فعلتُ ذلك لكي أُلقِّنه درساً لا ينساه، ولكي يتعلّم في المرّة القادمة ألا يحشرَ أنفه في أمور الآخرين.

كانوا قد وَصَلُوا إلى منتصف الطريق، عندما توقّف الثعلب فجأة، وقال لبينوكيو:

- هل تريد أن تضاعفَ نقودكَ الذَّهَبيَّة؟

- ماذا تعني بذلك؟

- هل تريد أن تجعلَ من الليرات الذَّهَبيَّة الخمس البائسة، مئة ليرة، أو ألف ليرة، أو ألفَي ليرة؟

- يا حبّذا! وما هي الوسيلة إلى ذلك؟

- الوسيلة سهلة جدّاً، عوضاً من أن تعودَ إلى بيتكَ، يجب أن تأتي معنا.

- وإلى أين تريدان أن تقوداني؟

- إلى بلاد المُغفّلين.

بينوكيو فكّر في الأمر قليلاً، ثمّ قال بحزم:

- كلاّ، لا أريد الذهاب إلى تلك البلاد، لقد أصبحتُ قريباً من البيت، حيث ينتظرني أبي. مَنْ يدري؟! العجوز المسكين، كم تحسّر يوم أمس، عندما تأخّرتُ في العودة. للأسف أنا كنتُ ابناً عاقّاً، والجُدْجُد -الناطق كان مُحقّاً عندما كان يقول: «الأولاد الذين يخرجون عن الطاعة، سيكون الفشل حليفهم في الحياة». وأنا جرّبتُ ذلك على حسابي، لأن مصائب كثيرة صادفتْني، ومساء يوم أمس أيضاً، في بيت مانجافوكو، لقد خاطرتُ ... برررر! أشعر بالقشعريرة لمجرّد التفكير في ذلك!

- إذنْ!، - قال الثعلب، - أتريد حقّاً الذهاب إلى البيت؟ اذهبْ، وستندم على ذلك!

- ستندم على ذلك! – ردّد القطّ.

- فكّرْ جيّداً، يا بينوكيو، ولا تُوَلِّ ظهركَ للحظّ.

- لا تُوَلِّ ظهركَ للحظّ! – ردّد القطّ.

- ليراتكَ الذَّهَبيَّة سوف تصبحُ ألفَيْن بين ليلة وضحاها.

- ألفَيْن! – ردّد القطّ.

- ولكنْ، كيف يمكن للّيرات أن تتضاعفَ بهذا القدر؟ - سأل بينوكيو، فاغراً فمه من الدهشة.

- سأوضّح لكَ الأمر حالاً، - قال الثعلب. - يجب أن تعرفَ أنه في بلاد المغفّلين يوجد حقل مقدّس، يطلق عليه الجميع اسم «حقل المعجزات». قُمْ بحفر فجوة صغيرة في هذا الحقل، وضَعْ بداخله مثلاً الليرات الذَّهَبيَّة، ثمّ اردم الفجوة بعد ذلك بقليل من التراب، اسقِهَا بدلوَيْن من ماء الينبوع، انثرْ فوقها رشّة ملح، وفي المساء، اذهبْ مرتاح البال إلى السرير. في هذه الأثناء، خلال الليل، الذَّهَب يتبرعم ويُزهِر، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، ماذا ستجد بعودتكَ إلى الحقل؟ ستجد شجرة جميلة مكتنزة بليرات ذهبية كثيرة، بما يعادل حبّات سنبلة قمح ناضجة في شهر حزيران.

- إذنْ، هكذا، - قال بينوكيو الذي كان أكثر اندهاشاً من قبل، - إذا طمرتُ في ذلك الحقل ليراتي الذَّهَبيَّة الخمس، كم ليرة سأجد في صباح اليوم التالي؟

- إنها عملية حسابية بسيطة، - أجاب الثعلب، - عملية حسابية يمكن أن تقوم بها على رؤوس أصابعكَ. افترضْ أن كل ليرة ذهبية تمنحكَ عنقوداً من خمسمائة ليرة ذهبية: ضاعف الخمسمائة بخمسة، وفي صباح اليوم التالي، ستجد في حوزتكَ ألفَيْن وخمسمائة ليرة ذهبية برّاقة ورنّانة.

- آه، يا له من أمر رائع! – صَرَخَ بينوكيو وهو يرقص من البهجة. – حالما أجمع هذه الليرات الذَّهَبيَّة، سأحتفظ لنفسي بألفَيْن، والخمسمائة المتبقّية سأهديها لكما.

- ستهديها لنا؟ - صَرَخَ الثعلب غاضباً ومُتصنِّعاً الإهانة. – فليشفع لكَ الرّبّ!

- فليشفع لكَ الرّبّ! – ردّد القطّ.

- نحن، - تابع الثعلب، - نحن لا نعمل من أجل مصالح خسيسة، نحن نعمل من أجل إثراء الآخرين فحسب.

- الآخرين فحسب! – ردّد القطّ.

- يا لهم من أناس طيّبين! – فكّر بينوكيو في نفسه، ومتناسياً أباه، المعطف وكتاب تعليم الأبجدية، والوعود الطّيّبة كلها التي نطق بها، قال للثعلب وللقطّ:

- فلنذهب، إذنْ، أنا قادم معكما.

* * *

XIII

حانة القريدس الأحمر

بعد أن ساروا وساروا، بحلول المساء، وَصَلُوا أخيراً منهَكين إلى حانة القريدس الأحمر.

- فلنتوقّف قليلاً هنا، - قال الثعلب، - لكي نتناولَ طعامنا، ونرتاح بعض الشيء، ثمّ سنعاود المسير في منتصف الليل، لنكون غداً فجراً في حقل المعجزات.

دخلوا إلى الحانة، وجلسوا على إحدى الطاولات: الثعلب والقطّ اشتكيا من قلّة الشهية. فالقطّ المسكين، الذي كان يُحسّ أن معدته ليست على ما يرام، لم يتمكّن سوى من أكل خمسة وثلاثين سمكة بوري مع صلصة البندورة، وأربع وجبات من الأمعاء بجبن البارميزان. ولأن الأمعاء بدت له وكأنها لم تُتَبّل بما فيه الكفاية، طَلَبَ أن يُحضروا له الزبدة والجبنة ثلاث مرّات!

والثعلب بدوره كان يرغب بتذوّق بعض الأطعمة فحسب، لكنْ، بما أن الطبيب كان قد فرض عليه حمية قاسية، لذا اضطرّ أن يقتنع بأرنب بسيط بمرقة حلوة ذات نكهة قوية، مع أطباق جانبية خفيفة من الدجاج السمين والديوك الصغيرة. بعد الأرنب، لكي يعيدَ نكهة ما طابت له نفسه، طَلَبَ وجبة من الترغل(*)، من الحجل، من الحمام، من الأرانب،

*) الترغل: أو القُمْرِيّ، طائر مهاجر شتوي، يتواجد بكثرة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط.

من الضفادع، من السحالي والعنب الأصفر، ولم يرغب بأيّ شيء آخر بعد ذلك. كان يقول إنه يشعر بغثيان كبير تجاه الطعام، وإنه لم يعد بإمكانه أن يُقرِّب أيّ شيء من فمه.

كان بينوكيو هو الوحيد الذي أكل أقلّ من الجميع. طَلَبَ حِصّاً من الجوز، وقطعة من الخبز، ولم يمسّ الطبق. كان الولد المسكين لا يزال يفكّر بحقل المعجزات، وكان قد أُصيب بتخمة مسبقة من الليرات الذَّهَبيَّة.

بعد أن انتهوا من طعام العشاء، قال الثعلب لصاحب الحانة:

- جهِّزْ لنا غرفَتَيْن مريحَتَيْن، واحدة للسّيّد بينوكيو، وأخرى لي ولصاحبي. سنغفو قليلاً قبل أن نعاودَ السَّفَر. لكنْ، تذكّر أن تُوقظنا قبل منتصف الليل، لكي نتابع سفرنا.

- حاضر، يا سيّدي، -أجاب صاحب الحانة وهو يغمز الثعلب والقطّ، وكأنه يقول: «مفهوم، لقد وَقَعَ في المصيدة! ...».

حالما دلف بينوكيو إلى السرير، غطّ في النوم حالاً، وبدأ يحلم. وبينما يحلم، بدا له وكأنه موجود في أحد الحقول، وهذا الحقل كان يغصّ بأغصان تتدلّى منها العناقيد، والعناقيد كانت مُحمّلة بالليرات الذَّهَبيَّة، حيث تتمايل بفعل الريح، وتُصدر أصواتاً رنّانة ترِن، ترِن، ترِن، وكأنها تقول: "مَنْ يريدني، فليأتِ، ويأخذني». ولكنْ، عندما أصبح بينوكيو على قاب قوسَيْن منها، أي عندما مَدّ يده، لكي يقطفَ بعضاً من تلك الليرات البرّاقة، ويدسّها في جيبه، فجأة استيقظ من نومه على وَقْع طَرْقات عنيفة على باب غرفته.

كان صاحب الحانة الذي أتى ليقول له بأن دقّات الساعة أعلنت منتصف الليل.

- وهل رفقائي جاهزين للسَّفَر؟ -سأل بينوكيو.

- ليسا جاهزَيْن فحسب، بل سافرا منذ ساعَتَيْن.

- ولماذا هذه العجلة كلها؟

- لأن القطّ استلم رسالة تقول إن ابنه الكبير أُصيب بتقرّح في قَدَمه من البرد، وإن حالته خطرة.

- وهل دفعا ثمن العشاء؟

- طبعاً لا؟ إنهما شخصان يتمتّعان بذوق رفيع، ولا يمكن أن يتطاولا على سعادتكَ.

- خسارة! لكان سرَّني كثيراً هذا التطاول! – قال بينوكيو، وهو يحكّ رأسه. ثمّ سأل:

- وأين سينتظرني هذان الصديقان الحميمان؟

- في حقل المعجزات، غداً صباحاً، مع ضوء النهار.

دفع بينوكيو ليرة ذهبية لقاء عشاء صاحبَيْه، وبعد ذلك واصل السَّفَر.

ولكنْ، يمكن القول إنه سافر وهو يتلمّس طريقه، لأن ظلاماً حالكاً كان يُخيّم في الخارج، وكان من المحال رؤية أيّ شيء. بينما في الحقول المجاورة، كان لا يُسمَع حفيف ورقة. بعض الطيور الليلية فقط، بينما تعبر الطريق من سياج إلى آخر. كانت تأتي وتخفق أجنحتها أمام أنفه، وكان بينوكيو يصرخ ويقفز إلى الوراء وهو يصيح: - اذهبوا من هنا؟ - وصدى التلال المحيطة كانت تُردّد من بعيد: - اذهبوا من هناااا؟ اذهبوا من هناااا؟ اذهبوا من هناااا؟

في هذه الأثناء، بينما كان يمشي، رأى على جذع شجرة حيواناً صغيراً يشعّ من جسمه ضوء شاحب وقاتم، مثل شمعة ليلية داخل لمبة من الخزف الشّفّاف.

- مَنْ أنتَ؟ - سأله بينوكيو.

- أنا طيف الجُدْجُد الناطق، -أجاب المخلوق الصغير بصوت واهن جدّاً، حيثُ كان يبدو وكأنه قادم من العالم الآخر.

- ماذا تريد منّي؟

- أريد أن أُسْدِيَ لكَ بنصيحة. عُدْ من حيث أتيتَ، واجلب الليرات الأربع التي بقيت في حوزتكَ إلى أبيكَ الفقير الذي يبكي وينتحب، لأنكَ اختفيتَ عن ناظرَيْه.

- غداً أبي سيصبح سيّداً عظيماً، لأن هذه الليرات الأربع ستصبح ألفَيْن.

- يا بني، لا تثقْ بالأشخاص الذين يوهمونَكَ بأن يجعلوكَ غنياً بين ليلة وضحاها. عادة، إمّا أن يكونوا مجانين أو محتالين! أصغِ إليّ، وعُدْ أدراجكَ.

- إنما أنا أريد أن أتابعَ طريقي.

- الوقت متأخّر! ...

- أريد أن أتابعَ طريقي.

- الليل حالك ...

- أريد أن أتابعَ طريقي.

- الطريق محفوف بالمخاطر ....

- أريد أن أتابعَ طريقي.

- تذكّر أن الأولاد الذي ينساقون وراء نزواتهم، سيندمون عاجلاً أم آجلاً.

- إنها القصص نفسها. تصبح على خير، أيّها الجُدْجُد.

- تصبح على خير، يا بينوكيو، ولتحفظكَ السماء من المخاطر، ومن القَتَلَة!

حالما انتهى من نطق هذه الكلمات، انطفأ الجُدْجُد الناطق حالاً، كما تنطفئ شمعة أمام الريح، والطريق أصبحت أكثر حلكة من السابق.

* * *

XIV

بينوكيو، لأنه لم يصغ إلى نصائح الجُدْجُد الناطق الثمينة، يلتقي بالقَتَلَة.

- حقّاً، - قال بينوكيو في نفسه مُعاوداً السير، - يا لحظّنا السيّئ نحن الأولاد المساكين! الجميع يوبّخوننا، الجميع يؤنّبوننا، الجميع ينصحوننا. لو تركنا زمام الأمور لهم، لأصبح الجميع آباءنا وأساتذتنا. الجميع: حتّى الجُدْجُد الناطق. لهذا السبب، أنا لم أصغ لذلك الجُدْجُد الثرثار. حسب رأيه، مَنْ يدري كم من المصائب ستواجهني! يجب أن ألتقيَ بالقَتَلَة أيضاً! لحسن الحظّ، أنا لا أصدّق وجودهم، ولم أصدّقه أبداً. حسب رأيي، القَتَلَة تمّ ابتداعهم عمداً من الآباء، لكي يُخيفوا الأولاد الذين يريدون الخروج ليلاً. ثمّ حتّى لو وجدتُهم هنا على الطريق، ربّما سيُخيفونني؟ أبداً. سأذهب لملاقاتهم وأنا أصرخ: "أيّها السادة القَتَلَة، ماذا تريدون منّي؟ تذكّروا أنه لا يجب المزاح معي! اذهبوا، إذنْ، في طريقكم، وكفّوا عن الكلام!". أمام هذا الجواب الجدّي، أولئك القَتَلَة المساكين، الذين يبدو وكأنني أراهم أمامي، سيُولّون الأدبار. وإذا صدف أنهم كانوا وقحين، ولم يبادروا إلى الهرب، عندئذ سأهرب أنا، وأضع حدّاً لهذا الأمر ...

ولكن بينوكيو لم يتمكّن من إنهاء حديثه، لأنه في تلك اللحظة بدا له وكأنه يسمع من الخلف حفيف أوراق خفيف.

استدار لينظرَ، ورأى في الظلمة شخصَيْن أسوَدَيْن ملتحفَيْن بكيسَيْن من الفحم، وكانا يتبعانه وهما يقفزان على رؤوس أصابعهما، كما لو أنهما شبحان.

- ها هما حقّاً! – قال في نفسه: وبما أنه لم يعرف أين يخبّئ الليرات الذَّهَبيَّة الأربع، وَضَعَهُم في فمه، تحت اللسان بالضبط.

ثمّ جرَّب أن يهربَ. ولكنْ، لم يخطُ بعد الخطوة الأولى، عندما أحسّ بهما يقبضان عليه من ذراعَيْه، وصوتان رهيبان ومَهولان يقولان له:

- مالُكَ، أو حياتُكَ!

بما أن بينوكيو كان عاجزاً عن الرّدّ بالكلمات، بسبب الليرات الموجودة في فمه، قام بألف إيماءة وألف حركة، لكي يُفهِمَ الشخصَيْن الملثَّمَيْن اللذَيْن كان يشاهِد منهما العينَيْن فقط عبر الثقوب في الكيس، أنه كان دمية بائسة، وأنه لا يملك في جيوبه قرشاً واحداً مثقوباً.

- هيّا! هيّا! توقّف عن الثرثرة، وأخرِج النقود! – كانا يصرخان متوعِّدَيْن مثل قطّاع الطُّرُق.

بينوكيو أشار لهما برأسه وبيَدَيْه أنه لا يملك نقوداً.

- أخرِج النقودَ، وإلا سنقضي عليكَ، - قال المجرم الأطول قامةً.

- سنقضي عليكَ! – ردّد الآخر.

- وبعد أن نقضيَ عليكَ، سنفعل الشيء نفسه مع أبيكَ!

- أبيكَ أيضاً!

- كلا، كلا، كلا، لا تلمسوا أبي المسكين! - صَرَخَ بينوكيو بنبرة يائسة: وفي أثناء صراخه، رنّت الليرات الذَّهَبيَّة في فمه.

- آه! أيّها المخادع! إذنْ، لقد خبّأتَ النقود تحت لسانكَ؟ أخرجْها حالاً!

بينوكيو لم يحرّك ساكناً.

- آه! أنتَ تتصنّع الصّمّ؟ انتظرْ لحظة، سنتولى نحن أمر إرغامكَ على إخراجهم!

وبالفعل، واحد منهما أمسكَ بينوكيو من رأس أنفه، والآخر أمسك به من ذقنه، وبدآ يشدّان واحد من هنا والآخر من هناك، لكي يُجبروه على فَتْح فمه: ولكن محاولتهما باءت بالفشل. فم بينوكيو كان يبدو وكأنه موصَد بالمسامير.

عندئذ استلّ القاتل ذو البنية الصغيرة سكّيناً، وحاول أن يغرسَه بين شَفَتَيْه: ولكن بينوكيو، بسرعة البرق، غرس أسنانه في يده، وبعد أن انتزع قطعة منها، بصقها، وتصوّروا دهشته عندما انتبه أنه بصق على الأرض رِجْلَ قطٍّ بدلاً من يد إنسان.

متشجّعاً من انتصاره الأوّل هذا، تخلّص بقوّة من براثن القَتَلَة، ومُتخطّياً سياج الطريق، بدأ يعدو عبر الحقول، والقَتَلَة يلاحقانه، مثل كلبيّ صيد خلف أرنب وحشي: وذاك الذي فَقَدَ رجلاً، كان يركض على ساق واحدة، ولم يُعرَف قطٌّ كيف كان يفعل ذلك.

بعد عدو لمسافة خمسة عشر كيلومتراً، شَعَرَ بينوكيو بالإعياء. عندئذ، تسلّق جذع شجرة صنوبر عالية وهو مشتّت الذهن، وجلس على قمّة الأغصان. القَتَلَة حاولا بدورهما تسلّق الشجرة، ولكنْ، عندما وَصَلاَ إلى

منتصف الجذع، تزحلقا، وبسقوطهما على الأرض، انسلخت أيديهما وأرجلهما.

لم يدفعهما هذا للاستسلام: بالعكس، جمعا حزمة من الحطب، وَضَعَاها بمحاذاة شجرة الصنوبر، وأضرما فيها النار. في أقلّ من لمح البصر، بدأت شجرة الصنوبر تشتعل وتلتهب، مثل شمعة تنفخ عليها الريح. بينوكيو، برؤيته النيران تتصاعد أكثر فأكثر، ولأنه كان لا يريد أن يلاقي مصير الحمامة المشوية، قام بقفزة عظيمة من قمّة الشجرة، وبدأ يركض مجدّداً عبر الحقول والكروم. والقَتَلَة خلفه، دون أن يكلاّ أبداً.

في هذه الأثناء، كان ضوء النهار قد طلع، والمطاردة كانت لا تزال مستمرّة. فجأة، وَجَدَ بينوكيو طريقه مسدوداً بحفرة عريضة وعميقة جدّاً، مليئة بماء آسن، بلون القهوة والحليب. ما العمل؟ "واحد، اثنان، ثلاثة!"، صَرَخَ بينوكيو، وبعد عدّة خطوات سريعة، قَفَزَ إلى الجانب الآخر. والقَتَلَة قَفَزَا بدورهما وراءه، ولكنْ، بما أنهما لم يحسبا المسافة جيّداً، باطابووووم! ... سَقَطَا في وسط الحفرة. بينوكيو الذي سمع دويّ السقوط ورزاز الماء، صَرَخَ وهو يضحك ويتابع عَدوه:

- حمّاماً هنيئاً، أيّها السادة القَتَلَة.

وبينما كان يعتقد بأنهما قد غرقا، ملتفتاً إلى الوراء، لاحظ بأنهما كانا يلاحقانه، ملتحفَيْنْ دائماً في كيسَيْهما والماء يقطر منهما مثل رغيفَيْنْ مبلّلَيْنْ من الخبز.

* * *

XV

القَتَلَة يلاحقان بينوكيو، وبعد أن يُمسكا به، يشنقانه على غصن شجرة السنديانة العملاقة.

حينئذ، بعد أن اعترى بينوكيو اليأس، وكان على وشك أن يُلقي بنفسه على الأرض، وأن يستسلم، وبينما يجول بنظره بين الأخضر القاتم للأشجار، لمح من بعيد لمعان بيت ناصعاً مثل الثلج.

- إذا ساعدَتْني قواي في الوصول لغاية ذلك البيت، ربّما سأنجو، - قال في نفسه.

ودون أن يتردّد لحظة واحدة، عاود الركض عبر الغابة بخطوات واسعة، والقَتَلَة دائماً وراءه.

وبعد عَدو يائس لمدّة ساعَتَيْن تقريباً، أخيراً، وَصَلَ سالماً إلى ذلك البيت، وبدأ يطرق الباب:

لم يجبْ أحد.

عاود الطَّرْق بعنف أكبر، لأنه بدأ يسمع اقتراب وَقْع خطوات مطارديه ولهاثهم المضطرب.

الصمت نفسه.

بعد أن تبيّن له أن الطَّرْقَ لا يجدي نفعاً، أحسّ بإحباط شديد، وبدأ يركل الباب، وينطحه برأسه. عندئذ، أطلّت طفلة جميلة من النافذة، ذات شعر أزرق ووجه أبيض مثل تمثال منحوت من الشمع. كانت عيناها مغمضَتَيْن ويداها مضمومَتَيْن إلى صدرها،

ثمّ، دون أن تُحرِّك شَفَتَيْها، قالت بصوت كان يبدو وكأنه قادم من عالم آخر:

- لا يوجد أحد في هذا البيت. لقد قضوا نحبهم جميعاً.

- إذنْ، افتحي لي الباب أنتِ! - صَرَخَ بينوكيو وهو يبكي ويستغيث.

- أنا بدوري ميّتة.

- ميّتة؟ إذنْ، ماذا تفعلين هنا على النافذة؟

- أنتظر أن يُحضروا التابوت، ويأخذونني.

اختفت الطفلة حالما تفوّهت بهذه الكلمات، والنافذة أُغلقت دون أن تُصدِر أيّ ضجيج.

- آه، يا أيّتها الطفلة الجميلة ذات الشَّعر الأزرق، - كان يصيح بينوكيو، - افتحي لي، بحقّ السماء! أشفقي لحال ولد مسكين ملاحق من قِبَل القَتَلَة...

ولكنه لم يتمكّن من إكمال جملته، لأنه أحسّ بأيدٍ تمسكه من رقبته والصوتان المعتادان يجلجلان متوعدَيْن:

- سوف لن تفلتَ من أيدينا ثانية بعد الآن!

عندما شاهد بينوكيو الموت يتراءى أمام عينَيْه، انتابتْه موجة قوية من

الرعشة، ولشدّة ارتجافه، كانت تُسمَع أصوات مفاصل ساقَيْه الخشبيَّتَيْن والليرات الذَّهَبيَّة التي يحتفظ بها تحت لسانه.

- هكذا، إذنْ؟ - سأله القَتَلَة، - أتريد أن تفتحَ فمكَ أم لا؟ آه! لا تجيب؟ ... دع الأمر لنا: لأن هذه المرّة سنُرغمكَ نحن على فتحه! ...

وبعد أن استلاّ سكّينَيْن طويلَيْن، ذي نصلَيْن حادَّيْن كالشفرة، تزاك ... طعناه طعنَتَيْن ما بين كليَتَيْه.

ولكن بينوكيو، لحسن حظّه، كان مصنوعاً من الخشب القاسي جدّاً، لهذا السبب، انكسرت النصال، وتفتّتت إلى ألف شظية، والقاتلان راحا يتبادلان نظرات الدهشة بعدما لم يبقَ في أيديهما سوى المقبضَيْن.

- لقد فهمتُ، -قال عندئذ أحدهما، -يجب شنقه! فلنشنقه!

- فلنشنقه! ردّد الآخر.

وانتقلا من القول إلى الفعل. ربطا يَدَيْه خلف ظهره، ولفّا أنشوطة حول رقبته، ثمّ علّقاه على غصن شجرة كبيرة، تُدعى "السنديانة العملاقة".

بعد ذلك، اتّخذا مكاناً لهما على العشب، بانتظار أن يلفظ أنفاسه الأخيرة: ولكن بينوكيو، بعد مضي ثلاث ساعات، كانت عيناه لا تزالان مفتوحَتَيْن وفمه مُطبقاً، وكان يرفس بقَدَمَيْه أكثر ممّا سَبَقَ.

في النهاية، بعد أن نال الضجر منهما، التفتا نحو بينوكيو، وقالا له ساخرَيْن:

- إلى اللقاء غداً. عندما سنعود إلى هنا صباح يوم غد، نأمل أن نجدكَ ميّتاً وفمكَ مفتوح.

ثمّ غادرا المكان.

في هذه الأثناء، كانت قد هبّتْ ريحٌ شمالية عنيفة، حيث كانت تنفخ وتزأر بغضب، وتلوِّح بجسد بينوكيو المسكين ذات اليمين وذات الشمال، وتهزّه بعنف مثل مطرقة جرس في أثناء الأعياد. وذلك الاهتزاز كان يسبّب له آلاماً حادّة، والأنشوطة المتينة كانت تضيق أكثر فأكثر حول رقبته، وتمنعه من التّنفّس.

كانت الغشاوة قد بدأت تلفّ عينَيْه، ورغم أنه كان يُحسّ بقُرب أجله، إلا أنه كان لا يزال يأمل أنه ربّما سيمرّ بين لحظة إلى أخرى إنسان طيّب من هناك، وسيمدّ له يد العون. ولكنْ، بعد أن طال انتظاره، ولم يلاحظْ ظهور أحد، عندئذ خطر بباله أباه المسكين ... وتمتم وهو يحتضر تقريباً:

- آه، يا أبي، لو كنتَ موجوداً هنا! ...

ولم يملك القوّة ليضيف شيئاً آخر. أغمض عينَيْه، فَغَرَ فاه، بسط رجلَيْه، وانتابته رعشة قوية. بعدها، بقي في مكانه جثّة هامدة.

* * *

XVI

الطفلة الجميلة ذات الشَّعر الأزرق تأمر بإحضار بينوكيو: تضعه على السرير، وتستدعي ثلاثة أطبّاء كي تتأكّد فيما إذا كان حيّاً أم ميّتاً.

في تلك الأثناء، بينما بينوكيو المسكين الذي علّقه القَتَلَة على غصن "السنديانة العملاقة"، كان يبدو ميّتاً أكثر ممّا هو حيّاً، عادت الطفلة الجميلة ذات الشَّعر الأزرق، وأطلّت من النافذة، ومُشفقة من رؤية ذلك التعس الذي كان يترنّح أمام هبّات الريح الشمالية وهو مُعلّق من رقبته، ضربت كفّاً بكَفٍّ ثلاث مرّات، ونقرت ثلاث نقرات خفيفة.

بعد هذه الإشارة، سُمِعَت جلبة كبيرة لأجنحة، تخفق باندفاع أهوج، وظهر بعدها باشق كبير، أتى وحطّ على عتبة النافذة.

- ماذا تأمرين، يا حوريّتي الجميلة؟ -قال الباشق مطأطئاً منقاره بإجلال (لأنه تجب الإشارة أن الطفلة ذات الشَّعر الأزرق لم تكن، في نهاية الأمر، سوى حورية طيّبة، حيث كانت تعيش منذ أكثر من ألف سنة بالقرب من تلك الغابة):

- أترى الدمية المعلّقة على غصن تلك "السنديانة العملاقة"؟

- أجل، أراها.

- حسناً، اذهبْ حالاً إلى هناك: اقطعْ بمنقارِكَ القوي الأنشوطة التي تتركه معلّقاً في الهواء، ومَدِّده بتؤدة على العشب بمحاذاة السنديانة.

طار الباشق، وبعد دقيقتَيْن عاد ليقول:

- لقد نفّذتُ ما أمرتِني به، سيّدتي.

- وكيف وجدتَهُ؟ حيّاً أم ميّتاً؟

- لأوّل وهلة، كان يبدو وكأنه ميّت، ولكنْ، لا يجب أن يكون ميّتاً تماماً، فحالما نزعتُ العقدة المتينة المشدودة على رقبته، شهق، وتمتم بصوت خافت: "الآن أشعر بالارتياح! ".

عندئذ، ضربت الحورية كفّاً بكفٍّ، ونَقَرَتْ نقرتَيْن خفيفَتَيْن، فظهر كلب بودل(*) مهيب، وكان يمشي منتصباً على قَدَمَيْه الخلفيَّتَيْن، كما لو أنه إنسان.

كلب البودل هذا، كان يرتدي لباس حوذي للتشريفات. كانت تغطّي رأسه قبّعة ثلاثية الزوايا مزيّنة بأشرطة مذهّبة، باروكة بيضاء بضفائر تتدلّى حتّى رقبته، وسترة بلون الشوكولاتة ذات أزرار من الألماس، وجيبَيْن كبيرَيْن، ليحتفظ داخلهما بالعظام التي كانت تهديه إيّاها صاحبته في أثناء طعام الغذاء، سروال قصير من المخمل القرمزي، جوارب من الحرير،

---

*) كلب البودل: (البطباط بالعربية)، كلب ذو شعر كثيف وأجعد، اسمه العلمي Canis Lupus Familiaris. وقد اخترت الاسم الذي يطلق عليه باللغة الإنكليزية، Poodle، لأنه الاسم الأكثر شيوعاً في البلدان العربية. بينما في الإيطالية يُعرف باسم Barbone، وبالألمانية Pudel، وهو مشتق من الألمانية القديمة Pudeln، ويعني حرفياً: القفز في الماء، ومنها الترجمة العربية: بطباط، أي من يحب البطبطة في الماء. (المترجم).

وصندل مثل ذاك الذي ينتعله الأطفال، ومن الخلف، كان يملك جيباً من الساتان الشبيه ببطانة المظلات، لكي يخفي بداخله ذنبه عندما يكون الطقس مُمْطراً.

- هيّا، يا ميدورو، الشاطر! - قالت الحورية لكلب البودل، - جهِّزْ حالاً أجمل عربة من إسطبلي، واسلكْ طريق الغابة، وبوصولكَ إلى تحت "السنديانة الضخمة"، ستجد دمية مسكينة على وشك الموت، ممدَّدة على العشب. ارفعْها عن الأرض برقّة، وضَعْها بكل تؤدة على وسائد العربة، واجلبْها إليّ. هل فهمتَ؟

كلب البودل، لكي يُشير بأنه استوعب أوامر صاحبته، حرَّكَ ثلاث أو أربع مرّات البطانة المصنوعة من الساتان الأزرق، التي كان يملكها في مؤخّرته، وانطلق مثل السهم.

وبعد مضي وقت قصير، شوهدَت عربة جميلة بلون الريح، تخرج من الإسطبل، مَحشوّة كلّها بريش العنادل، ومُبطّنة من الداخل بالقشدة المخفوقة وكريم بالسافويارديّ(*). كان يجرّ العربة مئة زوج من الفئران البيض، وكلب البودل الجالس على الصندوق، كان يهزّ سوطه يمنة ويسرى، مثل حوذي يخشى من أنّه تأخّر عن الموعد.

لم يكن قد مضى، بعد، ربع ساعة من الوقت، عندما عادت العربة أدراجها، والحورية، التي كانت تنتظر على مدخل البيت، أمسكت الدمية المسكينة من رقبتها، وأخذتْها إلى حجرة كانت جدرانها مَكسوَّة باللؤلؤ، وطَلَبَت استدعاء أشهر الأطبّاء الموجودين في الجوار.

---

*) بسكويت هشّ وجاف، يتكوّن أساساً من البيض وهو على شكل أصابع، يسمى بالإنكليزية Ladyfingers (أصابع السيدة)، وبالإيطالية Savoiardi، ويستعمل في العديد من وصفات الحلوى، مثل التيراميسو والشارلوت.

والأطبّاء حضروا فوراً، الواحد تلو الآخر: أيْ غراب، وبومة، وجُدْجُد ناطق.

- أريد أن أعرفَ من حضراتكم، - قالت الحورية موجّهة كلامها إلى الأطبّاء الثلاثة المجتمعين حول سرير بينوكيو، – أريد أن أعرفَ من حضراتكم، فيما إذا كانت هذه الدمية سيّئة الحظّ، حيّة أم ميّتة! ...

أمام هذه الدعوة، تقدّم الغراب مستبقاً الآخرين، فحص معصم بينوكيو: ثمّ أنفه، ثمّ خنصره. وبعدما فحصه بشكل دقيق، نطق هذه الكلمات بنبرة مهيبة:

- حسب اعتقادي، الدمية ميّتة تماماً، ولكنْ، لسوء الحظّ، إذا لم تكن ميّتة، عندئذ هذا سيكون دليلاً قاطعاً على أنها لا تزال حيّةً!

- أنا آسفة، - قالت البومة، - لأنني مضطّرة لمعارضة صديقي وزميلي الذائع الصّيت الغراب: بينما حسب رأيي، الدمية لا تزال حيّة، ولكنْ، لسوء الحظّ، إذا لم تكن حيّة، عندئذ هذا سيكون دليلاً على أنها ميّتة فعلاً!

- وأنتَ، ألا تقول شيئاً؟ - سألت الحورية الجُدْجُد الناطق.

- أنا أقول إن الطبيب الذي يتوخّى الحذر، عندما لا يعي ما يقوله، أفضل شيء يمكن أن يفعله، هو أن يبقى صامتاً. من ناحية أخرى، تلك الدمية الممدّدة هناك، لا يبدو وجهها غريباً عليّ: أنا أعرفها منذ زمن طويل! ...

بينوكيو، الذي كان قد بقي طيلة تلك الفترة جامداً مثل قطعة خشبية حقيقية، امتلكتْه رعشة متشنّجة، هزّت السّرير كلّه.

- تلك الدمية هناك، - تابع الجُدْجُد الناطق، - طائشة، ولا يمكن تقويمها ...

بينوكيو فَتَحَ عينَيْه، وأغلقهما حالاً.

- إنه صبيّ شقيّ، بليد ومتسكّع. بينوكيو أخفى وجهه تحت الملاءة.

- تلك الدمية هناك، هو وَلَد عَصي، حيث سيجعل أباه المسكين يموت من القهر! ...

عند هذا الحدّ، ارتفع في الحجرة صوت شهقات وبكاء مخنوق. تصوّروا حال الآخرين عندما رفعوا الشراشف قليلاً، واكتشفوا أنّ من يبكي ويشهق كان بينوكيو بعينه.

- عندما يبكي الميّت، فهو دليل على أنّه في طريقه إلى الشفاء، - قال الغراب بوقار.

- يؤسفني أن أعارضكَ الرأي، أيّها الزّميل والصديق المشهور، أضافت البومة، -ولكنْ، حسب رأيي، عندما يبكي الميّت، فهو دليل على أنه لا يرغب في الموت.

* * *

XVII

بينوكيو يأكل السُّكّر، ولكنه يأبى تناوُل المُسهّل:
لكنْ عندما يرى حفّاري القبور الذين أتوا ليأخذوه، عندئذ، يتناول المُسهِّل.
فيما بعد، يكذبُ، وعقاباً له ينمو أنفه.

حالما خَرَجَ الأطبّاء الثلاثة من الحجرة، اقتربت الحورية من بينوكيو، وبعد أن لامست جبهته، لاحظت أنه يعاني من حمّى شديدة.

عندئذ أذابت مسحوقاً أبيضَ في نصف كأس من الماء، ودفعتْه إلى بينوكيو قائلة له بصوت حنون:

- اشربْه، وسوف تُشفى خلال بضعة أيّام.

بينوكيو نَظَرَ إلى الكأس، زمّ فمه قليلاً، ثمّ سأل بصوت مُتباكٍ:

- أهو حُلوٌ أم مُرٌّ؟

- إنه مُرٌّ، ولكنه سيجعلكَ تشعر بالارتياح.

- إذا كان مُرّاً، فأنا لا أطيقه.

- أصغِ إليّ: اشربْه.

- أنا لا أطيق المرّ.

- اشربْه: وعندما ستنتهي من شربه، سأمنحكَ قطعة من السُّكّر، لكي تُعدِّل مذاق فمكَ.

- أين هي قطعة السُّكّر؟

- ها هي، - قالت الحورية وهي تُخرجها من علبة مذهّبة.

- أريد قطعة السُّكّر قبلاً، وبعد ذلك، سأشرب ذلك الماء المُرّ ...

- هل تعدني بذلك؟

- نعم ...

الحورية أعطتْه قطعة السُّكّر، وبينوكيو، بعد أن قَضَمَهَا وابتلعها خلال لحظة واحدة، قال وهو يلحس شَفَتَيْه:

- لكان أمراً مُمتعاً لو أن السُّكّر أيضاً دواء! ... لكنتُ تناولت المُسهِّل كل يوم.

- والآن يجب أن تحافظَ على الوعد الذي قطعتَهُ لي وتشرب هذه القطرات القليلة من الماء، لأنكَ ستتعافى بها.

بينوكيو تناول كأس الماء دون رغبة، وأدخل رأس أنفه فيه، ثمّ قرّبه من فمه، ثمّ عاد وأدخل رأس أنفه فيه: أخيراً قال:

- إنه مُرّ كثيراً! مُرّ كثيراً! أنا لا أستطيع أن أشربَه.

- كيف تدّعي ذلك وأنتَ لم تذقْه بعد؟

- لقد تخيّلتُه! أحسستُ به من الرائحة. أريد قبلاً قطعة أخرى من السُّكّر ... وبعد ذلك سأشرب الدواء! ...

عندئذ، مع الصّبر كله الذي تتمتّع به أمّ طيّبة، وَضَعَت الحورية في فمه قطعة أخرى من السُّكّر، وبعد ذلك، قدّمت له الكأس مجدّداً:

- لا أستطيع أن أشربَه هكذا! – قال بينوكيو، وهو يتأفّف.

- لماذا؟

-لأن تلك الوسادة الموجودة هناك في الأسفل فوق قَدَمَيّ، تُسبِّب لي الضجر.

والحورية انصاعت لطَلَبه، ونزعت عن رجلَيْه الوسادة.

- لا طائلَ من ذلك! وحتّى هكذا لا أستطيع أن أشربَه ...

- ما الذي يُضجركَ ثانية؟

- يُضجرني مدخل الباب، لأنه موارب.

ذَهَبَت الحورية، وأغلقت باب الحجرة.

- بالنتيجة، - صَرَخَ بينوكيو، مُنفجراً في البكاء، - هذا الماء مُرّ، لا أريد أن أشربَه، كلا، كلا، كلا! ...

- يا بنيّ، سوف تندم على فِعْلتكَ ...

- لا يهمّني ....

- مرضكَ خطير ...

- لا يهمّني ...

- الحمّى ستأخذكَ خلال ساعات قليلة إلى العالم الآخر ...

- لا يهمّني ....

- ألا تهاب الموت؟

- البتّة! ... أُفضِّل الموت على أن أشربَ ذلك الدواء المقزّز.

عند هذا الحدّ، انفتح باب الحجرة على مصراعَيْه، وولج إلى الداخل أربعة أرانب كالحة اللون مثل المداد، حيث كانوا يحملون على أكتافهم تابوتاً صغيراً للأموات.

- ماذا تريدون منّي؟ - صَرَخَ بينوكيو، ناهضاً بذعر، ليجلسَ على السرير.

- لقد جئنا لنأخذكَ، - أجاب الأرنب الأكثر ضخامة.

- لكي تأخذوني؟ ... لكنْ، أنا لم أمتْ بعد! ...

- ليس بعد: ولكنْ، بقي من عمركَ دقائق قليلة، لأنكَ رفضتَ تناوُل الدواء الذي لكان شفاكَ من الحمّى! ...

- يا حوريّتي، يا حوريّتي، - بدأ عندئذ يصرخ بينوكيو، - أعطني حالاً ذلك الكأس. اذهبوا، بحقّ السماء، لأنني لا أريد أن أموتَ، كلا ... لا أريد أن أموتَ ...

وأمسك الكأس بكلتا يَدَيْه، وأفرغه في جوفه دفعة واحدة.

- لا بأس! – قالت الأرانب. – هذه المرّة تعبْنا ذَهَبَ سدى.

وبعد أن حملوا مجدّداً التّابوت الصغير على أكتافهم، خرجوا من الحجرة، وهم يُغمغمون، ويُصرُّون على أسنانهم.

وهكذا، في غضون بضع دقائق، قَفَزَ بينوكيو من السّرير، معافى تماماً، لأنه يجب أن نعرف أن الدمى الخشبية تتميّز بقلّة مرضها، وأنها تتعافى بسرعة.

والحورية، برؤيته يركض ويثبُ فرحاً في الحجرة، مبتهجاً وفيّاضاً بالحيوية مثل ديك في مقتبل عمره، قالت له:

- إذنْ، دوائي جعلكَ تشفى تماماً؟

- شفاني فقط! لقد جعلني ألِدُ من جديد! ...

- إذنْ، لماذا جعلتَني أتوسّل إليكَ هذا الوقت كله، لتشربَه؟

- لأننا نحن الأولاد هكذا جميعاً! نخشى الدواء أكثر ممّا نخشى الألم.

- إنه لأمر مُخجل! الأولاد يجب أن يعرفوا أن العلاج المناسب إذا تمّ تناوُله في أوانه، يمكن أن يُنقذَهم من مرض خطير، وربّما من الموت أيضاً ...

- أوه! لكنْ، في المرّة القادمة، سوف لن أترك نفسي عرضة للتّوسّل إلى هذا الحدّ! سوف أتذكّر تلك الأرانب السوداء، مع التابوت على أكتافهم ... وعندئذ سآخذ الكأس بيَدَيّ حالاً، وأتجرّعه! ...

- والآن، تعال إلى هنا قليلاً، وحدِّثني كيف وجدتَ نفسكَ بين أيدي القَتَلَة؟

- لقد حَدَثَ الأمر بعد أن منحَني مُحرِّك الدمى مانجافوكو بعض الليرات الذَّهَبيَّة، وقال لي: "إليكَ بهم، خُذْهم إلى أبيكَ!" وأنا، عوضاً عن ذلك، التقيتُ في الطريق بثعلب وبقطّ، شخصَيْن طيّبَيْن جدّاً، حيث قالا لي: " هل تريد أن تتحوّل هذه الليرات إلى ألف وألفَيْن؟" تعال معنا،

وسنقودكَ إلى "حقل المعجزات". وأنا قلتُ: "فلنذهب"، وهما قالا: "فلنتوقّف هنا في حانة القريدس الأحمر، وبعد منتصف الليل، سنعاود السَّفَر". وأنا، عندما استيقظتُ، وجدتُهما قد اختفيا، لأنهما كانا قد سافرا. عندئذ، أنا بدأتُ أمشي في الليل، حيث كان الظلام يبدو وكأنه كتلة هائلة من السواد، لهذا السبب، وجدتُ على الطريق اثنَيْن من القَتَلَة داخل كيسَيْن من الفحم، حيث قالا لي: "إلينا بالنقود"، وأنا قلتُ: "أنا لا أملك نقوداً"، لأن الليرات الأربع كنتُ قد خبّأتُها في فمي، وأحد القَتَلَة حاول أن يحشرَ يده في فمي، وأنا قطعتُ يده بأسناني؛ ومن ثمّ بصقتُها، ولكنْ، بدلاً من يد، بصقت رِجْلَ قطٍّ. والقَتَلَة لاحقاني، وأنا بدأتُ أركض وأركض، لغاية ما أمسكا بي، وعلّقاني من رقبتي على شجرة في هذه الغابة، وهما يردّدان: "غداً سنرجع إلى هنا، وعندئذ سوف تكون ميّتاً وفمكَ مفتوح، وهكذا سنسلبكَ الليرات الذَّهَبيَّة التي خبّأتَها في فمكَ".

- والآن، أين وَضَعْتَ الليرات الذَّهَبيَّة الأربع؟ - سألتْه الحورية.

- لقد أضعتُها! – أجاب بينوكيو، ولكنه كان يكذب، لأنه كان يملكها في جيبه. حالما نطق بالكذبة، أنفه، الذي كان طويلاً من قبل، ازداد طوله حالاً إصبعَيْن.

- وأين أضعتَها؟

- في الغابة القريبة من هنا.

بعد هذه الكذبة الثانية، ازداد طول أنفه أكثر.

- إذا كنتَ قد أضعتَها في الغابة القريبة، – قالت الحورية، – سوف نبحث عنها، ونعثر عليها: لأن كل ما يُفقَد في الغابة القريبة، يُعثَر عليه دائماً.

- آه! الآن أتذكّر جيّداً، - ردّ بينوكيو بمكْر، - أنا لم أفقد الليرات الأربع، ولكنْ، دون أن أحتاط، ابتلعتُها بينما كنتُ أشرب الدواء الذي قدّمتِيْه ليّ.

أمام هذه الكذبة الثالثة، الأنف استطال بطريقة هائلة، حيث لم يعد بإمكان بينوكيو المسكين الالتفات إلى أيّة جهة. إذ إنه، عندما كان يلتفت إلى هذه الجهة، كان أنفه يصطدم بالسرير وبزجاج النافذة، وعندما كان يلتفت إلى الجهة الأخرى، كان يصطدم بالجدران وبباب الحجرة، وعندما كان يرفع رأسه قليلاً، كان يخاطر بأن يغرزَ رأس أنفه في عين الحورية.

والحورية كانت تنظر إليه وتضحك.

- لماذا تضحكين؟ - سألها بينوكيو، مشوَّشاً وقلقاً من أنفه ذاك الذي كان ينمو أمام ناظرَيْه.

- أضحك من الأكاذيب التي رويتَها.

- كيف عرفتِ أنني كنتُ أكذب؟

- الكذب، يا ولدي، يمكن تخمينه فوراً! لأن هنالك نوعَيْن من الكذب: هنالك أكاذيب ذات أرجل قصيرة، وأكاذيب تملك أنفاً طويلاً: كذبتُكَ بالضبط تنتمي إلى ذلك الصنف ذي الأنف الطويل.

بينوكيو الذي لم يعد يعرف أين يُخبّئ نفسه من الخجل، حاول أن يهربَ من الحجرة، ولكنه لم يتمكّن من ذلك. كان أنفه قد نما كثيراً، إلى درجة أنه لم يعد بإمكانه المرور من الباب.

* * *

XVIII

بينوكيو يعثر على الثعلب والقطّ، ويذهب معهما لزَرْع الليرات الأربع في حقل المعجزات.

كما يمكنكم أن تتصوّروا، الحورية تَرَكَتْ بينوكيو يبكي ويصرخ لنصف ساعة بحالها، بسبب أنفه ذاك الذي كان لا يمرّ من باب الحجرة، وفَعَلَتْ ذلك، لكي تُلقّنه درساً قاسياً، بحيث يتخلّى عن عادته السيّئة في سَرْد الأكاذيب، العادة الأكثر سوءاً التي يمكن أن يعتاد عليها ولد ما. ولكنْ، عندما رأت وجهه قد تغيّر وعيناه تنفران خارج رأسه من اليأس، رأفت لحاله، فضربت كفّاً بكفٍّ، وبسماع تلك الإشارة، دَخَلَ إلى الغرفة من النافذة ألفاً من الطيور الضخمة المعروفة باسم "النّقّار"(*)، هؤلاء، بعد أن حطّوا جميعاً فوق أنف بينوكيو، بدؤوا ينقرونه بشدّة، وخلال بضع دقائق، رجع ذلك الأنف الضخم إلى وَضْعه الطبيعي.

- كم أنتِ طيّبة، يا حوريّتي، - قال بينوكيو وهو يُجفّف دموعه، - وكم أنا أودّكِ!

---

*) القَرَّع أو نقّار الخشب: يُعدّ طائر نقّار الخشب من أشهر فصائل الطيور، حيث إن له عادات يؤدّيها بانتظام وإصرار غريبَيْن، ويمتاز أيضاً بمنقاره المدبّب الذي يستعمله في نقب الأشجار بواسطة النَّقْر السريع المتواصل، كما يملك هذا الطائر ذيلاً صلباً، يستخدمه مع قَدَمَيْه في تثبيت نفسه على الأشجار، ويتغذّى نقّار الخشب على الديدان والخنافس.

- أنا أودّكَ أيضاً، – أجابت الحورية، - وإذا كنتَ تريد أن تبقى معي، ستكون أخي الصغير، وأنا أختكَ الطيّبة ...

- أنا أودّ أن أبقى بطيبة خاطر ... ولكنْ، ماذا عن أبي المسكين؟

- لقد فكّرتُ بكلّ شيء، وأخبرتُ أباكَ: سوف يكون هنا قبل حلول الظلام.

- حقّاً؟ ... – صَرَخَ بينوكيو وهو يقفز من الفرح. – إذنْ، يا حوريّتي، إذا كنتِ توافقين، سوف أذهب للقائه! لا أرى الساعة التي سأتمكّن فيها من منح قبلة إلى ذلك العجوز المسكين الذي عانى كثيراً من أجلي!

- كما تشاء، ولكنْ، انتبهْ من أن تضيعَ. اسلكْ طريق الغابة، وأنا واثقة من أنكَ ستلتقي به.

خَرَجَ بينوكيو من البيت، وحالما دَخَلَ الغابة، بدأ يعدو مثل ظبيٍّ. ولكنْ، عندما وَصَلَ إلى مسافة معيّنة، مقابل "السنديانة العملاقة" تقريباً، توقّف، لأنه بدا له أنه سمع أصواتاً قادمة من بين أغصان الشجر. كان ذلك صحيحاً، خمّنوا مَنْ ظهر له على الطريق؟ ... الثعلب والقطّ، أو بالأحرى رفيقا السَّفَر اللذان تناول معهما طعام العشاء في حانة القريدس الأحمر.

- ها هو صديقنا العزيز بينوكيو! – صَرَخَ الثعلب وهو يعانقه ويُقبّله.
– ماذا تفعل هنا؟

- ماذا تفعل هنا؟ - ردّد القطّ.

- إنها قصّة طويلة، - قال بينوكيو - وسوف أرويها لكما، بكل هدوء. ولكنْ، يجب أن تعلموا أنه عندما تركتُماني وحدي في الحانة، التقيتُ بالقَتَلَة على الطريق ...

- القَتَلَة؟! ... يا لصديقي المسكين! وماذا كانوا يريدون؟

- كانوا يريدون سرقة الليرات الذَّهَبيَّة.

- أوغاد! ... – قال الثعلب.

- أوغاد وسَفَلَة! – ردّد القط.

- ولكنْ، أنا بدأتُ أهرب، - تابع بينوكيو القول، - وهم دائماً في إثري: لغاية ما لحقا بي، وعلّقاني على غصن من تلك السنديانة.

ثمّ أشار نحو "السنديانة العملاقة" التي كانت تبعد مسافة خطوَتَيْن عنهم.

- هل يمكن سماع أفظع من ذلك؟ -قال الثعلب. – في أيّ عالم حُكم علينا أن نعيش؟ أين سنجد مأوى آمناً نحن الرجال الشرفاء؟ ...

بينما كانوا يتكلّمون على تلك الحال، لاحظ بينوكيو أن القطّ كان أعرجاً من رِجْلِهِ الأمامية اليمنى، لأنه كان ينقصه القَدَم كاملاً مع المخالب: لهذا سأله:

- ماذا فعلتَ بقَدَمكَ؟

القطّ كان يريد أن يجيب شيئاً ما، ولكنه تردّد. عندئذ أسرع الثعلب في الإجابة:

- صديقي متواضع جدّاً، ولهذا السبب لا يجيب. أنا سأجيب عنه. يجب أن تعرف، إذنْ، أننا قبل ساعة من الآن، التقينا في الطريق بذئب عجوز، واهن القوى تقريباً من الجوع، حيث طَلَبَ منّا أن نُحسِنَ إليه. وبما أننا كنّا لا نملك حتّى عَظْمة سمك، لنقدّمها له، ماذا فعل صديقي، الذي

يملك، بحقّ، قلب قدّيس؟ ... انتزع بأسنانه قَدَماً من أرجله الأمامية، وألقى بها إلى ذلك المخلوق المسكين، لكي يتمكّن من سَدّ رَمَقه.

وبينما الثعلب ينطق بهذه الكلمات، جفّف دمعة في عينه. تملّك الانفعال بينوكيو أيضاً، فاقترب من القطّ، وهمس في أذنه:

- إذا كانت القطط كلها مثلكَ، فيا لحظّ الفئران! ...

- والآن، ماذا تفعل في هذه البقاع؟ - سأل الثعلب بينوكيو.

- أنتظر أبي، حيث يجب أن يصلَ إلى هنا بين لحظة وأخرى.

- وليراتك الذَّهَبيَّة؟

- لا تزال في حوزتي، ما عدا واحدة حيث صرفتُها في حانة القريدس الأحمر.

- مع العلم أنه، بدلاً من أربع ليرات، يمكن أن يتحوّلوا غداً إلى ألف وألفَيْن! لماذا لا تصغي إلى نصيحتي؟ لماذا لا تذهب وتزرعهم في "حقل المعجزات"؟

- هذا مستحيل اليوم: سأذهب في يوم آخر.

- سيكون الوقت متأخّراً جدّاً في يوم آخر، – قال الثعلب.

- لماذا؟

- لأن ذلك الحقل اشتراه أحد الأغنياء، واعتباراً من يوم غد، سوف لن يسمحَ لأحد بزَرْع النقود هناك.

- كم يبعد الحقل من هنا؟

- كيلومترَيْن بالكاد. هل تريد أن تأتيَ معنا؟ ستكون هناك خلال نصف ساعة: ازرع فوراً الليرات الأربع، وبعد دقائق قليلة، ستقطف ألفَيْن، وهذا المساء ستعود إلى هنا بجيوب منتفخة بالنقود. هل تريد أن تأتيَ معنا؟

تردّد بينوكيو قليلاً في الإجابة، لأنه خطرت بباله الحورية الطّيّبة، جيبيتّو العجوز وتحذيرات الجُدْجُد الناطق، ولكنْ، انتهى بأن فعل مثلما يفعل الأولاد الذين لا يحتكمون إلى عقولهم، ولا يملكون قلوباً، أي انتهى بهزّة من رأسه، وقال للثعلب وللقطّ:

- فلنذهب، أنا سآتي معكما.

وانطلقوا معاً.

بعد مسير نصف يوم، وَصَلُوا إلى مدينة تُدعى "هنيئاً مريئاً". حالما دخلوا إلى المدينة، لاحظ بينوكيو أن الطُّرُقات تغصّ بكلاب هزيلة، حيث كانت تتثاءب من الجوع، بخراف ذات صوف مجزوز، ترتجف من البرد، بديوك بقيت دون عُرفٍ ودون حويصلات، حيث كانت تشحذ حبّة قمح، بفراشات ذات أحجام كبيرة فَقَدَتْ قدرتها على الطيران، لأنها كانت قد باعت أجنحتها الجميلة والملوّنة، بطواويس بلا ذيول، حيث كانت تخجل من الظهور، وبطيور حجل حيث كانت تعدو بصمت، متحسّرة على أرياشها الذَّهَبيَّة والفضّيّة التي فَقَدَتْها إلى الأبد.

بين هذا الحشد من الشحّاذين والفقراء الخجولين، كانت تمرّ بين فترة وأخرى عربات فخمة، وبداخلها بعض الثعالب، أو غربان العَقْعَق(*) أو تلك الطيور التي تمارس عمليات السَّلْب والنَّهْب.

- وأين يقع "حقل المعجزات" هذا؟ - سأل بينوكيو.

---

*) العَقْعَق اليورو- آسيوي، أو العَقْعَق الأوروبي أو العَقْعَق العادي (Pica pica)، هو عبارة عن طائر، تتمّ تربيته في المنازل في مختلف أرجاء أوروبا، وفي الكثير من أجزاء آسيا وشمال غرب إفريقيا. وهو واحد من الطيور المتعدّدة في عائلة الغراب التي يُطلق عليها اسم العَقْعَق، وينتمي إلى فرع Holarctic للعَقْعَق "الأحادي". ويُعدّ العَقْعَق الأوروبي من أكثر الطيور ذكاءً، ويُعتقد أنه واحد من أكثر الحيوانات ذكاءً بصفة عامّة. واتّساع حجم منطقة مخّ الطائر لديه تساوي تقريباً الحجم النسبي الموجود في الشمبانزي وإنسان الغاب والبشر، ويشتهر في أوربا كسارق الذَّهَب، أو المعادن البرّاقة بشكل عامّ.

- هنا، على بعد خطوَتَيْن.

وبادروا فوراً إلى العمل. اجتازوا المدينة، وبعد أن أصبحوا خارج أسوارها، توقّفوا في حقل منعزل، حيث كان لا يختلف كثيراً عن الحقول الأخرى.

- ها قد وصلنا، - قال الثعلب لبينوكيو. – الآن انْحَنِ على الأرض، احفرْ بيَدَيْكَ حفرة صغيرة في الحقل، وضَعْ بداخلها الليرات الذَّهَبيَّة.

بينوكيو أطاع أوامر الثعلب. حَفَرَ الحفرةَ، وَضَعَ بداخلها الليرات الذَّهَبيَّة الأربع التي بقيت بحوزته، ثمّ رَدَمَهَا بقليل من التراب.

- والآن، – قال الثعلب، - اذهبْ إلى البئر القريب، اجلبْ دلواً من الماء، واسق المكان الذي زرعتَ فيه الليرات الذَّهَبيَّة.

بينوكيو ذَهَبَ إلى البئر، وبما أنه كان لا يوجد دلواً في متناول يده، نَزَعَ عن قَدَمِهِ الصندلَ، ملأه بالماء، وسقى التراب الذي يغطّي الحفرة. ثمّ سأل:

- هل هنالك شيء آخر يجب أن أفعله؟

- لا شيء، - أجاب الثعلب، - الآن يمكننا الذهاب. لاحقاً، بعد عشرين دقيقة تقريباً، ارجعْ بمفردكَ إلى هنا، وستجد شجيرة قد نبتت من التربة بأغصان مُحمّلة بالليرات الذَّهَبيَّة.

بينوكيو المسكين، الذي كان قد فَقَدَ عقله من الفرح، شَكَرَ ألف مرّة الثعلب والقطّ، ووعدهما بهدية جميلة.

- كلا، نحن لا نريد هدايا، - أجاب ذانك المحتالَيْن. – يكفي أننا علّمناكَ كيف تصبح غنياً دون أن تُتْعِبَ نفسكَ، ونحن سعيدان كأننا في يوم عيد الفصح.

بعد أن نطقا بهذه الكلمات، ودّعا بينوكيو، وذَهَبَا لشأنهما، مُتمنِّيَيْن له محصولاً وافراً.

* * *

XIX

اللصوص يستولون على ليرات بينوكيو الذَّهَبيَّة وعقاباً له، يُحكَم عليه بالسجن لمدّة أربعة أشهر.

بعد أن عاد بينوكيو إلى المدينة، بدأ يُحصي الزمن دقيقة بدقيقة، وعندما بدا له أن الوقت قد حان، سَلَكَ فوراً الطريق المؤدّية إلى "حقل المعجزات".

وبينما كان يحثّ الخطى، كان قلبه يخفق بشدّة وصوته يتناهى إلى سَمْعه: تِك، تاك، تِك، تاك، مثل دقّات ساعة جدارية في عمق الليل. وفي أثناء ذلك، كان يفكّر في نفسه:

- وماذا لو وجدتَ على أغصان الشجرة ألفَي ليرة ذهبية بدلاً من ألف؟ ... وماذا لو وجدتَ خمسة آلاف بدلاً من ألفَيْن؟ ... وماذا لو وجدتَ مئة ألف بدلاً من خمسة آلاف. آه، يا إلهي، عندئذ، سوف أُصبح سيّداً نبيلاً، بحقّ! ... أريد أن يكون عندي قصر جميل، وأن أمتلك ألف حصان خشبي، وألف إسطبل، لكي أقضيَ وقتي في اللهو. ثمّ أريد أيضاً قبواً طافح بالمشروبات اللذيذة، ومكتبة مليئة بالفواكه المجفّفة، بأقراص الحلوى، وبالفطائر المَحشوّة بالقشدة.

وبينما كان يترك العنان لخياله، وَصَلَ إلى جوار الحقل، ووَقَفَ هناك ينظر فيما إذا كان بإمكانه أن يلمحَ شجرة ما بأغصان مُحمَّلة بالليرات الذَّهَبيَّة: ولكنه لم يرَ شيئاً. مشى مئة خطوة أخرى إلى الأمام، لا شيء: دَخَلَ إلى الحقل ... ذَهَبَ نحو تلك الحفرة الصغيرة، حيث طَمَرَ ليراته الذَّهَبيَّة، لا شيء. عندئذ انتابَهُ القلق، ومتناسياً قواعد الأدب والكياسة، أخرج أحد يَدَيْه من جيبه، وحكّ رأسه مُطوّلاً.

في تلك الأثناء، تناهى إلى سَمْعه قهقهة صاخبة: نَظَرَ إلى الأعلى، فرأى على شجرة ببّغاء ضخماً، حيث كان يُفلّي ما تبقّى من ريش على جسمه.

- لماذا تضحكُ؟ - سأله بينوكيو بلهجة حانقة.

- أضحك لأنني كنتُ أفلّي ريشي من البراغيث، فدغدغتُ نفسي تحت الأجنحة.

بينوكيو لم يُجبْ. ذَهَبَ إلى البئر، وبعد أن ملأ الصندل نفسه بالماء، قام مجدّداً بسَقْي التربة التي تغطّي الليرات الذَّهَبيَّة.

وهنا سمع قهقهات أخرى، أكثر فجاجة من سابقاتها، تُدوِّي في العزلة الساكنة للحقل.

- وماذا بعد؟ - صَرَخَ بينوكيو غاضباً، - هل يمكنني أن أعرفَ لماذا تضحكُ، أيّها الببغاء الوقح؟

- أضحك من أولئك البُلهاء الذين يُصدِّقون التّرّهات كلّها، والذين ينساقون وراء مَنْ هم أكثر مكْراً منهم.

- هل تقصدني أنا بكلامكَ هذا؟

- أجل، أقصدكَ أنتَ، يا بينوكيو المسكين، أنتَ الولد اليافع في مقتبل عمركَ، حيث تصدِّق بأنه يمكن زَرْع وحصد النقود في الحقول، كما يزرعون الفاصولياء واليقطين. أنا، أيضاً، صدَّقتُ ذلك قبلكَ، وها أنذا أدفع ثمن غلطتي. اليوم (ولكنْ، بعد فوات الأوان) وصلتُ إلى قناعة، مفادها أنه لكي أجمعَ بشرف قليلاً من النقود، يجب أن أعرف كيف أكسبها، إمّا بعمل يدي، أو باستعمال ذكائي.

- لا أفهمكَ، - قال بينوكيو، الذي كان قد بدأ يرتجف من الخوف.

- لا بأس! سأشرح لكَ الأمر بشكل أفضل، - أضاف البّبغاء. - يجب أن تعرف أنه، بينما كنتَ في المدينة، الثعلب والقطّ عادا إلى هذا الحقل: استوليا على الليرات الذَّهَبيَّة المطمورة، ثمّ هربا مثل الريح. والآن، سبعٌ مَنْ يستطيع اللحاق بهما!

بينوكيو بقي مشدوهاً، ورافضاً تصديق كلام البّبغاء، بدأ يحفر بيَدَيْه وبأظفاره الأرض التي كان قد سقاها. وحَفَرَ، حَفَرَ، حَفَرَ، حَفَرَ حفرةً عميقةً، تتّسع لحزمة قشّ كبيرة: ولكن الليرات الذَّهَبيَّة كانت قد اختفت.

عندئذ انتابه اليأس، فعاد بسرعة إلى المدينة، وذَهَبَ مباشرة إلى المحكمة، لكي يدّعي أمام القاضي ضدّ المحتالَيْنِ اللذَيْن سلباه نقوده.

القاضي كان قرداً من فصيلة الغوريلاّ: قرد عجوز ووقور لسنّه المتقدّمة، للحيته البيضاء. وبشكل خاصّ لنظّاراته الذَّهَبيَّة، بلا عدسات، التي كان مضطّراً لحَمْلهما باستمرار، بسبب نزف في عينَيْه، حيث كان يُعذِّبه منذ أعوام عديدة.

روى بينوكيو أمام القاضي الخدعة الجائرة التي كان ضحيّتها بتفاصيلها كلها، ذكر الاسم، والكنية، وأوصاف المُحتالَيْن، وانتهى مُطالباً بالعدل.

القاضي أصغى إليه باهتمام بالغ: عاش القصّة كَطَرَف منها، تعاطف معه، تأثّر، وعندما انتهى بينوكيو من سَرْد قصّته، مَدّ يده، وقَرَعَ الجرس.

بسماع الجرس، حَضَرَ كلبَان ضخمان، يرتديان لباس الجندرمة.

عندئذ، قال القاضي لهما وهو يشير نحو بينوكيو:

- لقد سلبوا هذا البائس المسكين أربع ليرات ذهبية: بالتالي، خذاه، وألقيا به في السجن.

بينوكيو، عندما سمع بهذا الحكم الفجائي، بقي مذهولاً، وأراد أن يعترض، ولكن الجندرمة، لكي يتفادوا ضياع وقت، لا طائل منه، كمّموا فمه، وقادوه إلى الزنزانة.

وهنالك كان عليه أن يبقى أربعة أشهر، أربعة أشهر بطولها: وكانت إقامته ستطول أكثر، لو لم يقع حادث، ساعده في الخروج من تلك الورطة. لأنه يجب أن نعرف أن الإمبراطور الشّابّ، الذي كان يحكم مدينة "هنيئاً مريئاً"، بما أنه كان قد حقّق نصراً عظيماً على أعدائه، أمر بإقامة مهرجان عامّ، أضواء، ألعاب نارية، سباق خيول ودرّاجات هوائية، ولكي تبلغ البهجة ذروتها، طَلَبَ بأن تُفتَح أبواب السجون، وأن يُطلقوا سراح المجرمين كلهم.

- إذا خَرَجَ الآخرون، أريد أن أخرج أنا أيضاً، -قال بينوكيو للسّجّان.

- كلا، أنتَ لا تستطيع الخروج، - أجاب السّجّان، - لأنكَ لستَ من أولئك الذين ...

- عفواً، – ردّ بينوكيو، - أنا أيضاً مجرم.

- في هذه الحالة، أنتَ محقّ تماماً، - قال السّجّان، ونازعاً قبّعته باحترام، ومُحيياً بينوكيو، فَتَحَ له أبواب السجن، وتَرَكَه يهرب.

* * *

XX

بعـد أن أُطْلِقَ سـراحه، بينوكيـو يحــزم أمــره للعــودة إلــى بيــت الحوريــة، ولكــنْ، فــي الطريــق يصادف أُفْعُوَاناً مخيفاً، وبعد ذلك، يقـع طريـدة فــي الفـخّ.

تصوّروا بهجة بينوكيو عندما أحسّ بالحُرّيّة. دون أن يتردّد لحظة واحدة، خَرَجَ حالاً من المدينة، وسَلَكَ الطريق التي يجب أن توصله إلى بيت الحورية.

بسبب الطقس المُمْطر، كان الطريق كلّه قد تحوّل إلى مستنقع من الماء، وكان الوحل يصل حتّى الركبَتَيْنْ.

ولكن بينوكيو كان لا يفكّر بالتراجع.

متلهّفاً لرؤية أبيه وشقيقته ذات الشَّعر الأزرق، كان يعدو بقفزات مثل كلب سلوقيّ، وخلال عدوه كانت نتف الوحل تتطاير حتّى قبّعته. وفي هذه الأثناء، كان يتابع المشي وهو يردّد في نفسه:

- كم من المصائب حَلَّتْ بيّ ... وأنا أستحقّها! لأنني دمية عنيدة وصلفة، وأريد أن أفعل كل شيء كما يحلو ليّ، دون أن أصغيَ إلى أولئك

الذين يحبّونني، ويملكون حصافة تعادل ألف مرّة حصافتي! ... ولكنْ، من الآن فصاعداً، أعاهد نفسي أنني سوف أُغيّر من نهج حياتي، وسوف أكون ولداً مؤدّباً ومطيعاً ... لأنني رأيتُ بأمّ عينَيّ أن الأولاد العاقّين، تجدهم دائماً متورّطين في مآزق عويصة، ولا يَبْلون في أيّ شيء.

وأبي، هل انتظرني؟ ... هل سأجده في بيت الحورية؟ يا لأبي المسكين! لقد مضى وقتٌ طويلٌ دون أن أراه، وكم أتلهّف لأداعبَه، وألثمَه! والحورية هل ستعفو عنّي، لأنني أسأتُ لها؟ ... مع أنني تلقّيتُ منها اهتماماً كبيراً، ورعاية مُفعمة بالمحبّة ... وإذا كنتُ اليوم لا أزال على قيد الحياة، فالفضل يعود لها! ولكنْ، هل يوجد ولد أكثر نكراناً للجميل، وقاسي القلب مثلي؟ ....

خلال ترديده هذه الكلمات، توقّف بغتة من الخوف، ورجع أربع خطوات إلى الوراء.

ماذا كان قد رأى؟ ...

كان قد رأى أُفْعُوَاناً ضخماً، متمدّداً على الطريق، ذا جلد أخضر، عينَيْن يتطاير منها الشّرر، وذَنَباً مدبَّباً، يتصاعد منه دخان شبيه بدخان الموقد.

من المستحيل تصوّر رعب بينوكيو: إذ إنه، بعد أن ابتعد نصف كيلومتر، جلس على كومة من الحجارة، بانتظار أن يذهبَ الأُفْعُوَان لشأنه مرّة واحدة وإلى الأبد، وأن يترك الطريق سالكة.

انتظر ساعة واحدة، ساعتَيْن، ثلاث ساعات، ولكن الأُفْعُوَان كان لا يزال متربّصاً هناك، وكان احمرار عينَيْه وعمود الدخان الذي يتصاعد من ذَنَبه يبدوان بوضوح حتّى من تلك المسافة البعيدة.

عندئذ، مُتسلِّحاً ببعض الشجاعة، اقترب بضع خطوات من الأُفْعُوَان، وقال بصوت ناعم مُبطَّن بالتوسُّل:

- عفواً، يا سيّدي الأُفْعُوَان، هل تتفضّل، وتنسحب قليلاً جانباً، بما يكفي لكي أعبر الطريق؟

كان كَمَنْ يتكلّم إلى جدار. الأُفْعُوَان لم يُحرِّك ساكناً.

عندئذ تابع بالمنوال نفسه:

- يجب أن تعرف، يا سيّدي الأُفْعُوَان، أنني في طريقي إلى البيت، حيث ينتظرني أبي الذي لم أره منذ وقت طويل! ... أعتقد أن قلبكَ سيمتلئ سروراً، لو تابعتُ طريقي، أليس كذلك؟

انتظر ردّاً لسؤاله ذاك، ولكن الجواب لم يأتِ: بالعكس، الأُفْعُوَان، الذي كان حتّى تلك اللحظة نشطاً ومليئاً بالحياة، أصبح خامداً ومتخشّباً تقريباً. أغمض عينَيْه، وذَنَبه توقّف عن بثّ الدخان.

- لقد مات بجدّ؟ .... – قال بينوكيو وهو يفرك يَدَيْه من الغبطة: ودون أن يهدر وقتاً، همّ بتجاوزه، لكي يعبر إلى الطرف الآخر من الطريق. ولكنه لم يكن قد انتهى بعد من رَفْع رجله، عندما انتصب الأُفْعُوَان بغتة، مثل انفلات نابض مضغوط، وبينوكيو، بينما يتراجع مذعوراً إلى الوراء، تعثّر وسَقَطَ على الأرض.

وللتأكيد، كانت سقطته سيّئة، لأن رأسه بقي مغروساً في الوحل ورجلَيْه مرتفعَتَيْن في الهواء.

عندما رأى الأُفْعُوَان تلك الدمية وهي تُحرِّك ساقَيْها بسرعة خارقة، ورأسها مغروس في الأرض، انتابتْه موجة عارمة من الضحك، فبدأ يضحك،

ويضحك، ويضحك، لغاية ما تمزّق شريان في صدره من الجهد الذي بذله في الضحك: وهنا قضى نحبه، بحقٍّ.

عندئذ عاود بينوكيو الركضَ للوصول إلى بيت الحورية قبل حلول الظلام. ولكنْ، في أثناء الطريق، بما أنه لم يعد يتحمّل لسعات الجوع الشديدة، عَرَجَ على حقل قريب، لكي يقطف بعض العناقيد من عنب الموسكاديللا(*)، ويا ليته لم يفعل ذلك!

حالما وَصَلَ إلى تحت شجرة الكرمة، كراك ... أحسّ بقطعتَيْن من الحديد القاطع تشدّان على قَدَمَيْه، حيث جعلتاه يرى النجوم تحوم حول رأسه.

بينوكيو المسكين، كان قد أمسك به الفخّ الذي نَصَبَهُ هناك الفلاحون للإيقاع ببعض بنات آوى(**) الجسام، التي كانت تُروّع جميع حظائر الدجاج في الأرجاء.

* * *

*) نوع من أنواع العنب الأبيض، ينمو بكثرة في وسط وجنوب إيطاليا، ويشتهر بطعمه الحلو واللذيذ.

**) بنات آوى: جمع ابن آوى، حيوان من فصيلة الكلبيات، ورتبة اللواحم، وهو أصغر من الذئب.

XXI

بينوكيو يقع في قبضة أحد الفلاحين، الذي يُرغمه على العمل كَكلب حراسة لحظيرة الدّجاج.

بينوكيو، كما يمكنكم أن تتصوّروا، انخرط في البكاء، في الصراخ والتّوسّل: ولكنه كان بكاء وصراخاً، لا طائل منهما، فلم يكن يوجد أحدٌ في الأرجاء، ولا كائن حيّ يعبر من الطريق.

في هذه الأثناء، كان قد حلّ الظلام.

بسبب آلام الفخّ الذي كان منغرساً في ساقَيْه، وبسبب الخوف من أن يجد نفسه وحيداً في العتمة وسط الحقول، كان بينوكيو في طريقه إلى الإغماء تقريباً، عندما شاهد بغتة فراشة ليلية تحوم فوق رأسه، ناداها، وقال لها:

- آه، أيّتها الفراشة، هل تقدّمين لي معروفاً، وتُنقذينني من هذا العذاب؟ ...

- يا للولد المسكين! - ردّت الفراشة، متوقّفة تنظر إليه بشفقة. - ما الذي حَدَثَ لكي تجد رجلَيْكَ مقيَّدَتَيْن بين هذَيْن الفَكَّيْن الحديديَّيْن المستديرَيْن؟

- لقد دخلتُ إلى الحقل، لأقطفَ عنقودَيْن من عنب الموسكاديللا، و...

- ولكنْ، هل كان العنب ملكَكَ؟

- لا ...

- إذنْ، مَنْ علَّمكَ أن تضعَ يَدَكَ على أملاك الآخرين؟ ... الجوع، يا ولدي، ليس سبباً كافياً لكي نمدَّ أيدينا لأشياء ليست ملكَنا ...

- هذا صحيح، هذا صحيح! – صَرَخَ بينوكيو باكياً، - ولكنني لن أفعلَ ذلك ثانية.

عند هذا الحدّ، قَطَعَ حوارَهما صوتُ خطوات خفيفة، كانت تقترب منهما.

كان صاحب الحقل الذي كان يتقدّم على رؤوس أصابعه، لكي يرى فيما إذا أحد من بنات آوى، الذين كانوا يلتهمون الدجاج في الليل، ربّما وَقَعَ في المصيدة.

وكانت دهشته كبيرة، بعد أن أخرج القنديل من تحت معطفه، عندما انتبه أن الفخّ أمسك بولدٍ عوضاً عن ابن آوى.

- آه، أيّها اللصّ! – قال الفلاح خارجاً عن طوره، - إذنْ، أنتَ الذي كنتَ تستولي على دجاجاتي؟

- كلا، لستُ أنا، لستُ أنا! – صَرَخَ بينوكيو وهو ينشج. – أنا دخلتُ إلى الحقل لكي آخذ عنقودَيْن من العنب فحسب! ...

- مَنْ يسرق العنب قادر تماماً على سرقة الدجاج أيضاً. دع الأمر لي، لأنني سأُلقّنكَ درساً، سوف لن تنساه لفترة طويلة.

وبعد أن فَتَحَ الفخّ، أمسك بينوكيو من رقبته، وحمله في الهواء لغاية البيت، مثل خروف صغير.

بعد أن خطا عدّة خطوات في فناء الدار، رماه على الأرض: وقال له وهو يضغط بقَدَمه على رقبته:

- لقد أصبح الوقت متأخّراً الآن، وأنا أريد الذهاب إلى السرير. سنصفّي حسابنا غداً. في هذه الأثناء، بما أن كلبي الذي كان يقوم بحراستي في الليل قد مات اليوم، أنتَ ستأخذ مكانه فوراً. أنتَ ستكون كلب حراستي.

وانتقل من القول إلى الفعل، فوَضَعَ على رقبته طوقاً ضخماً مُغطّى بدبابيس من النحاس، وشدّه حوله بطريقة، لا يمكن أن يُخْرِجَ رأسه منه. كان الطَّوْق مربوطاً إلى سلسال طويل من الحديد، والسلسال كان مثبّتاً على الجدار.

- إذا بدأت تمُطر هذه الليلة، - قال الفلاح، - يمكنكَ أن تأويَ إلى ذلك الكوخ الصغير من الخشب، حيث القشّ متوفّر دائماً، والذي استخدمه كلبي المسكين كسرير لمدّة أربع سنوات. وفيما لو حَدَثَ وأتى اللصوص، تذكّر أن تبقّى متأهّباً، وأن تنبحَ.

بعد هذا التحذير الأخير، دَخَلَ الفلاح إلى البيت، وأوصد الباب بأكثر من مزلاج، وبينوكيو المسكين بقي متكوّراً على نفسه في الفناء، ميّتاً أكثر ممّا هو حيّ، بسبب البرد، الجوع والخوف. وبين فترة وأخرى، كان يقول منتحباً وهو يدسّ يَدَيْه بغضب داخل الطَّوْق الذي كان يشدّ على حلقه:

- أنا أستحقّ ذلك! ... للأسف، أنا أستحقّ ذلك! أردتُ أن أكون بليداً ومتسكّعاً .... أردتُ أن أصغيَ إلى رفاق السوء، ولهذا السبب، يلاحقني سوء الحظّ دائماً. لو أنني كنتُ ولداً مطيعاً، مثل آخرين كثيرين، لو أنني

امتلكتُ الرغبة في الدراسة وفي العمل، لو أنني بقيتُ في البيت مع أبي المسكين، قلّما كنتُ هنا الآن، في وسط الحقول، أقوم بدور كلب حراسة لبيت فلاح. آه، لو أنني أَلِدُ من جديد! ... ولكنْ، فات الأوان، والأمر بحاجة إلى الصبر!

بعد أن نفث عن صدره قليلاً، وكان صادقاً في كل كلمة نطقها، دلف إلى الكوخ الصغير، وغطّ في النوم.

* * *

XXII

بينوكيو يكتشف اللصوص، وعربوناً لإخلاصه، الفلاح يُطلق سراحه.

وكان قد مضت ساعتَأن من الوقت وهو يغطّ في نوم عميق، عندما أيقظتْه من النوم نحو منتصف الليل همهماتٌ ونداءاتٌ من أصوات غريبة، حيث بَدَتْ له وكأنها قادمة من الفناء. أخرج بينوكيو أنفه من فوهة الكوخ الصغير، ورأى أربعة حيوانات، بِوَبَرٍ داكن، تشبه القطط، وهي تتداول فيما بينها. ولكنها لم تكن قططاً: كانت بنات آوى، حيوانات من فصيلة الكلبيّات ورتبة اللّواحم، وهي أصغر حجماً من الذِّئب، شرهة جدّاً، بشكل خاصّ تجاه البيض وصغار الدجاج. واحد من هؤلاء، منفصلاً عن زملائه، ذَهَبَ إلى فوهة الكوخ الصغير، وقال بصوت خافت:

- مساء الخير، يا ميلامبو.

- أنا لا أُدعى ميلامبو، - أجاب بينوكيو.

- مَنْ أنتَ، إذنْ؟

- أنا بينوكيو.

- وماذا تفعل هنا؟

- كلب حراسة.

- وأين ميلامبو؟ أين الكلب العجوز الذي كان يبقى في هذا الكوخ الصغير؟

- لقد مات.

- مات؟ يا للحيوان المسكين! كان طيّباً جدّاً! ... ولكنْ، يبدو من هيئتكَ أنكَ أنتَ أيضاً كلبٌ مهذّبٌ.

- عفواً، أنا لستُ كلباً! ...

- مَنْ أنتَ، إذنْ؟

- أنا دمية مُتحرّكة.

- وتقوم بدور كلب حراسة؟

- للأسف، إنها عقوبتي! ...

- حسناً، أنا أعرض عليكَ الاتّفاقات نفسها التي كنتُ أعقدها مع الراحل ميلامبو، وسوف تكون مسروراً.

- وما هي هذه الاتّفاقات؟

- نحن سنأتي مرّة واحدة في الأسبوع، كما في السابق، لزيارة هذا الحظيرة في الليل، وسنستولي على ثمانية دجاجات. من هذه الدجاجات، سنأكل سبعة نحن، وواحدة سنعطيها لكَ، بشرطٍ يجب أن يكون واضحاً، وهو أن تَصْطنعَ النوم وألا يخطر ببالكَ أن تنبحَ، وأن توقظَ الفلاح.

- أهذا ما كان يفعله ميلامبو؟ - سأل بينوكيو.

- نعم، وكنّا متّفقين دائماً. إذنْ، نَمْ قرير العين، وكنْ واثقاً أننا قبل أن نغادرَ هذا المكان، سنترك لكَ فوق الكوخ الصغير دجاجة سمينة، وريشها منتوف، لفطور يوم غد. هل تفاهمنا؟

- أكثر ممّا تتصوّر أيضاً! ... – أجاب بينوكيو، وهزّ رأسه بطريقة معيّنة، تحمل في طيّاتها التهديد، كما لو أنه أراد القول: "سنتكلّم عمّا قليل!".

عندما ظنّ الأربعة أنّهم بالأمان، ليقوموا بعملهم، ذهبوا مباشرة إلى الحظيرة التي كانت تقع بالقرب من كوخ الكلب، وبعد أن فتحوا الباب الخشبي الصغير الذي يحمي المدخل بقوّة أسنانهم وأظفارهم، تسلّلوا إلى الداخل واحداً تلو الآخر. ولكنْ، لم يكن قد انتهوا بعد من الدخول، عندما سمعوا الباب يُصْفَق وراءهم بعنفٍ شديدٍ.

كان بينوكيو هو الذي قد أغلق الباب، وغير راضٍ من حبسهم، وَضَعَ أمام الباب، لمزيد من الحيطة، حجرة كبيرة مسنداً إيّاها كالمِدَقّ.

وبعد ذلك، بدأ ينبح كما لو أنه كلب حراسة بالضبط، كان يصيح: هَوْ- هَوْ هَوْ - هَوْ -هَوْ هَوْ.

بسماعه ذلك النباح، قَفَزَ الفلاح من فراشه، تلقّف بندقيّته، ثمّ أطلّ من النافذة، وسأل:

- ماذا هنالك؟

- هنالك لصوص! - أجاب بينوكيو.

- أين هم؟

- في الحظيرة.

- أنا قادم حالاً.

وفي أقلّ من لفظ كلمة "آمين"، كان الفلاح قد وَصَلَ. دَخَلَ مُهرولاً إلى الحظيرة، وبعد أن أمسك ووَضَعَ في الكيس بنات آوى الأربع، قال لهم بنبرة سرور حقيقية:

- لقد وقعتُم أخيراً بين يَدَيّ! يمكنني أن أعاقبَكم، ولكنّني لستُ جباناً! سأكتفي عوضاً عن ذلك بأَخْذِكُم غداً إلى صاحب الحانة في القرية المجاورة، الذي سيسلخ جلودكم، وسيطهوكُم كأرانب برّيّة، يسيل لها اللعاب. إنه لشرف لا تستحقّونه، ولكن الرجال الكرماء مثلي لا يأبهون لمثل هذه الصغائر! ...

بعد ذلك، اقترب من بينوكيو، وبدأ يكيل له المديح، ومن بين الأشياء الأخرى، سأله:

- كيف تمكّنتَ من اكتشاف مؤامرة هؤلاء اللصوص الأربعة؟ مع العلم أن ميلامبو، كلبي الوفي ميلامبو، لم ينتبه لشيء أبداً ...

كان بإمكان بينوكيو عندئذ أن يبوحَ بما يعرفه. كان بإمكانه أن يفعل ذلك، أي أن يفضح الاتّفاقات المُخجلة التي كانت تدور بين ميلامبو وبنات آوى، ولكنه تذكّر أن الكلب كان قد مات، وقال في نفسه: - ماذا يُجدي اتّهام الموتى؟ ... الموتى هم موتى، وأفضل شيء يمكن عمله هو تَرْكهم يرقدون بسلام! ...

- وعند وصول بنات آوى إلى فناء الدار - تابع الفلاحُ الأسئلةَ - هل كنتَ مستيقظاً؟ أم نائماً؟

- كنتُ نائماً، - أجاب بينوكيو، - ولكن بنات آوى أيقظوني بثرثرتهم،

وواحد منهم أتى لغاية الكوخ ليقول لي: "إذا وعدتَ ألا تنبحَ وألا توقظَ سيّدكَ، نحن سنهديكَ دجاجة سمينة وريشها منتوف! ...". هل فهمتَ؟ أن تصل الوقاحة لدرجة أن يعرضوا عليّ اقتراحاً كهذا! لأنه يجب أن تعرف أنني دمية خشبية، ويمكن أن أملك عيوب الدنيا كلها، ولكنْ، لن أكون أبدا ذاك الذي يوافق على أن يكونَ لعبة بين أيدي الآخرين، ويُسهِّل أعمالهم الدنيئة!

- إنكَ لولد شهم! - قال الفلاح وهو يربت على كتفه. - هذه المشاعر تضعكَ في مصافّ الرجال الشرفاء، ولكي أعبّر لكَ عن سروري البالغ، أتركُ لكَ الحُرّيّة في أن تعودَ إلى البيت حالاً.

ونزع طَوْقَ الكلب عن رقبته.

* * *

XXIII

بينوكيو يبكي موت الطفلة الجميلة ذات الشَّعر الأزرق: ثمّ يلتقي بحمامة، تنقله إلى شاطئ البحر، وهنالك يُلقي بنفسه في الماء، لكي يُنقذ أباه جيبيتّو.

حالما كفّ بينوكيو عن الإحساس بالوطأة القاسية والمذلّة لذلك الطَّوْق حول رقبته، شرع يركض عبر الحقول، ولم يتوقّف حتّى دقيقة واحدة، لغاية ما وَصَلَ إلى الطريق الرئيسة، التي يجب أن تقودَه إلى منزل الحورية.

بوصوله إلى الطريق الرئيسة، حدّق نحو الأسفل، ليشاهد السهل الممتدّ تحته، ورأى جيّداً بالعين المجرّدة الغابة، حيث كان قد التقى، لسوء حظّه، بالثعلب وبالقطّ: رأى من خلال الأشجار، قمّة السنديانة العملاقة ترتفع في السماء، والتي كان قد عُلِّق عليها متدلّياً من رقبته. ولكنْ، بعد أن نَظَرَ من هنا، ونَظَرَ من هناك، لم يتسنَّ له رؤية منزل الطفلة الجميلة ذات الشَّعر الأزرق.

عندئذ امتلكه هاجس حزين، وبدأ يركض بكل القوّة التي كانت قد بقيت في رجلَيْه، ووَجَدَ نفسه خلال بضع دقائق على المرج، حيث كان يوجد منزل الحورية في وقت ما. ولكن المنزل الأبيض لم يكن يوجد له أثر.

كان يوجد عوضاً عنه شاهدٌ صغيرٌ من المرمر الأبيض الذي كان يُقرأ عليه بأحرف كبيرة هذه الكلمات المؤثّرة:

هنا ترقد

الطفلة ذات الشَّعر الأزرق

التي ماتت من الألم، لأن أخاها بينوكيو

كان قد تخلّى عنها.

أترك لكم أن تتصوّروا حال بينوكيو بعد أن انتهى من تهجئة تلك الكلمات بصعوبة. خرّ بينوكيو على ركبَتَيْه، وبدأ يُقبّل شاهِدَ القبر، ثمّ انفجر في بكاء منقطع النظير. بكى طوال الليل، ولغاية صباح اليوم التالي، ومع مطلع النهار، كان لا يزال يبكي، رغم أن الدموع كانت قد جفّت في مقلَتَيْه، وصراخه ونواحه كانا أليمَيْن وحادَّيْن، لدرجة أن التلال المجاورة كلها كانت تُردِّد صداه.

وبينما يبكي، كان يقول:

- يا حوريّتي، لماذا مُتِّ؟ ... لماذا لم أمُتْ أنا عوضاً عنكِ، لأنني شرّير كثيراً، وأنتِ طيّبة كثيراً؟ ... وأبي، ماذا حلّ به؟ يا حوريّتي، أخبريني أين يُمكن أن أجدَه، لأنني أريد أن أبقى معه دائماً، وألاّ أتركه أبداً! أبداً! أبداً! ... يا حوريّتي، قولي لي إن موتكَ ليس حقيقياً! ... إذا كنتِ حقّاً تكنّين الودّ لي ... إذا كنتِ حقّاً تودّين أخاكِ الصغير، عودي إلى الحياة ... عودي كما كنتِ من قبل! ... ألا يؤرّقكِ أن تريني وحيداً ومتروكاً لأمري من الجميع؟ إذا أتى القَتَلَة سيُعلّقونني ثانية على غصن الشجرة ... وعندئذ سأموت إلى الأبد. ماذا تريدين أن أفعل هنا، وحيداً في هذا العالم؟ الآن، وقد فقدتُكِ

أنتِ وفَقَدْتُ أبي، مَنْ سيُقدِّم لي الطعام؟ أين سأذهب لأنامَ في الليل؟ مَنْ سيصنع لي السترة الجديدة؟ آه! سيكون من الأفضل، مئة مرّة أفضل، أن أموتَ أنا أيضاً! أجل، أريد أن أموتَ! ... أوه! أوه! أوه! ...

وبينما كان ينتحب بتلك الطريقة، همّ بنَتْف شَعره: ولكن شَعره، بما أنه من خشب، لم يتمكّن حتّى من تلبية مراده في غرز أصابعه بين طيّاته.

في هذه الأثناء، عبرتْ من فوقه حمامة كبيرة، ثمّ توقّفت فاردةً جناحَيْها، ونادتْه من علوٍ شاهقٍ:

- قل لي، أيّها الطفل، ماذا تفعل هناك في الأسفل؟

- ألا ترين أنني أبكي؟! - قال بينوكيو وهو يرفع رأسه نحو مصدر الصوت، ويفرك عينَيْه بِكُمّ سترته.

- أخبرني، إذنْ، - أضافت عندئذ الحمامة - ألا تعرف بالصدفة من بين أصحابكَ، دمية تُدعى بينوكيو؟

- بينوكيو؟ ... هل قلتِ بينوكيو؟ - كرّر بينوكيو، وثَبَّ فوراً من مكانه. - أنا بينوكيو!

الحمامة، بسماع إجابته، نزلت بسرعة، وحطّتْ على الأرض. كانت أكبر حجماً من ديك حبشي.

- إذنْ، أنتَ تعرف جيبيتّو أيضاً؟ - سألت بينوكيو.

- إذا كنتُ أعرف جيبيتّو؟ أجل، إنه أبي المسكين! هل كلّمكِ عنّي؟ هل يُمكنكِ مرافقتي إليه؟ هل لا يزال حياً؟ أجبيني، بحقّ السماء: هل لا يزال حيّاً؟

- لقد تركتُه منذ ثلاثة أيّام على شاطئ البحر.

- وماذا كان يفعل على شاطئ البحر؟

- كان يصنع بنفسه زورقاً صغيراً، لكي يعبرَ به المحيط. ذلك الرجل المسكين، منذ أربعة أشهر وهو يدور العالم بحثاً عنكَ. وبما أنه لم يعثر عليكَ، يُصرّ الآن على البحث عنكَ في بلاد بعيدة من العالم الجديد.

- كم هي المسافة من هنا إلى الشاطئ؟ - سأل بينوكيو باندفاعِ قلقٍ.

- أكثر من ألف كيلومتر.

- ألف كيلومتر. يا حمامتي، كم سيكون جميلاً لو أملكُ جناحَيْكِ! ...

- إذا كنتَ ترغب، سأحملكُ أنا إلى هناك.

- كيف؟

- امتطِ ظهري. هل أنتَ ثقيل الوزن؟ ...

- ثقيل الوزن؟ بالعكس! أنا خفيف مثل ريشة.

ودون أن يضيفا شيئاً آخراً، امتطى بينوكيو ظهر الحمامة ووَضَعَ رِجْلاً من هنا ورِجْلاً من هناك، مثلما يفعل الفرسان، وصاح بغبطة كبيرة: - هيّا ... هيّا، أيّها الحصان الصغير، لأنني متشوّق للوصول بسرعة! ...

حلّقت الحمامة في السماء، وخلال بضع دقائق، وَصَلَت إلى عُلوٍّ شاهقٍ، بمحاذاة الغيوم تقريباً. بعد أن وَصَلَت إلى ذلك الارتفاع الخيالي، انتاب بينوكيو الفضول في أن ينظرَ إلى الأسفل، وسرعان ما امتلكَه خوف شديد ودوران في الرأس، ولكي يتفادى خطر السقوط، التصق بذراعَيْه على عنق مطيته ذات الجناحَيْن.

طارا طوال النهار، وبحلول المساء، قالت الحمامة:

- أشعر بعطشٍ شديدٍ.

- وأنا أشعر بجوعٍ شديدٍ! - أضاف بينوكيو.

- فلنتوقّف عند برج الحمام هذا لبضع دقائق، وبعد ذلك، سنواصل السَّفَر، لكي نكون غداً صباحاً على شاطئ البحر.

حطّا الرحيل في برج حمام مُقْفر، حيث كان يوجد وعاء يطفح بالماء وسلّة مليئة بالبقول.

بينوكيو، خلال حياته كلها، لم يطق أبداً البقول. حسب رأيه، كانت تُسبّب له الغثيان، وتُربِكُ معدته. ولكنْ، في ذلك المساء، أكل منها حتّى التخمة، وعندما أتى عليها كلّها تقريباً، التفت نحو الحمامة، وقال:

- ما كنتُ أصدِّق أبداً أن البقول طيّبة إلى هذا الحدّ!

- يجب أن تكونَ راضياً، يا بنيّ، - ردّت الحمامة، - لأن الجوع عندما يُعلِن عن نفسه، ولا يوجد شيء آخر للأكل، حتّى البقول تُصبح ذات مذاق رائع! عندما نجوع، يجب أن ندعَ جانباً نزواتنا وجشعنا!

بعد أن تناولا طعامهما، واصلا السَّفَر، وهوووووب! وَصَلاَ في صباح اليوم التالي إلى شاطئ البحر.

وَضَعَت الحمامة بينوكيو على الأرض، وبما أنها كانت لا ترغب حتّى في سماع كلمات الشُّكر، لأنها قامت بعمل خيّر، عاودت الطيران فوراً، واختفت.

الشاطئ كان مليئاً بأناس، حيث كانوا يصرخون ويلوّحون بأيديهم وهم ينظرون نحو البحر.

- ماذا حَدَثَ؟ - سأل بينوكيو امرأةً عجوزاً.

- حَدَثَ أن أباً مسكيناً، لأنه فَقَدَ ابنه، أراد أن يُبحرَ على متن زورق صغير، ليذهب ويبحث عنه فيما وراء البحار، والبحر اليوم هائج جدّاً، والزورق في طريقه إلى الغرق ...

- أين هو الزورق؟

- هناك في الأسفل، حيث أشير بإصبعي، - قالت العجوز، مشيرة إلى زورق صغير، كان يبدو من تلك المسافة كقشرة جوز، وبداخلها قزم في منتهى الصِّغَر.

بينوكيو صوَّب عينَيْه في ذلك الاتّجاه، وبعد أن نَظَرَ بإمعان، أطلق صرخة حادّة:

- إنه أبي! إنه أبي!

في هذه الأثناء، الزورق، بعد أن قاذفتْه الأمواج العاتية، كان يختفي حيناً بين الأمواج المتلاطمة، وحيناً أخرى، يظهر على سطح الماء، وبينوكيو، واقفاً على قمّة صخرة عالية، كان لا يملّ من نداء أبيه باسمه، والإشارة له بيَدَيْه، وهو يشهق ويدفع المخاط بصوت عال من أنفه، وحتّى بقبّعته التي تغطّي رأسه.

ويبدو أن جيبيتو، رغم أنه كان بعيداً جدّاً من الشاطئ، قد تعرّف على ابنه، لأنه خَلَعَ قبّعته هو أيضاً، وحيّاه، وبتكرار الإشارات، أَفْهَمَهُ أنه سيعود

بطيبة خاطر، ولكن البحر الهائج كان يمنعه من التجديف، لكي يتمكّن من الاقتراب من اليابسة.

بغتة، جاءت موجة عارمة، وابتلعت الزورق.

انتظر الجميع أن يعود الزورق إلى السطح، ولكنه كان قد اختفى عن الأنظار.

- يا للرجل المسكين! - قال حينئذ الصّيّادون، حيث كانوا قد تجمّعوا على الشاطئ، وبدؤوا يستعدّون للعودة إلى بيوتهم، وهم يُهمهمون صلوات بصوتٍ خافتٍ.

وفي تلك اللحظة، سمعوا صراخاً يائساً، وبالتفاتهم إلى الخلف، رأوا ولداً يُلقي بنفسه من قمّة صخرة، وهو يصيح:

- أريد أن أنقذَ أبي!

بينوكيو، بما أنه كان من خشب، كان يطفو بسهولة، وكان يعوم مثل سمكة. كان يختفي حيناً تحت الماء، مجذوباً من زخم الجزر، وكان يظهر حيناً أخرى مع ساق وذراع على مسافة بعيدة عن اليابسة. في النهاية، اختفى تماماً عن أنظارهم.

- يا للولد المسكين! - قال حينئذ الصّيّادون، حيث كانوا قد تجمّعوا على الشاطئ: ومُدمدمين صلاة بصوتٍ خافتٍ، تحرّكوا للعودة إلى بيوتهم.

* * *

XXIV

بينوكيو يصل إلى جزيرة النحلات العاملات ويعثر على الحورية.

بينوكيو، منساقاً من الأمل بأن يصلَ في الوقت المناسب لمساعدة أبيه المسكين، ظلّ يعوم طوال الليل.

وكم كانت مريعة تلك الليلة! سَيلٌ من المطر، بَرَدٌ، رعدٌ مخيفٌ، ووميضاتُ برق كانت تجعل الليل ينقلب نهاراً.

مع حلول الصباح، تمكّن من رؤية شريط من الأرض في البعيد. كانت جزيرة تقع في وسط البحر.

عندئذ بذل جهده كله للوصول إلى ذلك الشاطئ، ولكنْ، عبثاً. الأمواج، باندفاعها وتراجعها، كانت تعبث به، كما لو أنه غصن جافّ أو قطعة من القشّ. أخيراً، ولحسن حظّه، وَصَلَت موجة قوية وعارمة، وقذفتْ به على رمل الشاطئ.

كانت الصدمة قوية، لدرجة أنه عندما سَقَطَ على الأرض، تخلخلت أضلاعه ومفاصله كلها، ولكنه عزّى نفسه قائلاً:

- لقد نجوتُ بأعجوبة هذه المرّة أيضاً!

في هذه الأثناء، بدأت السماء تستعيد صفاءها رويداً رويداً، وبزغت الشمس بروعتها كلها، بينما البحر أصبح هادئاً جدّاً، ووديعاً مثل الحَمَلِ.

عندئذ، نشر بينوكيو ثيابه تحت الشمس، لكي يُجفّفها، ومضى ينظر هنا وهناك بحثاً عن زورق بداخله رجل على سطح ذلك الامتداد الهائل من الماء. ولكنْ، بعد أن حدَّق ملياً، لم يرَ أمامه سوى السماء، الماء وبعض السُّفن الشراعية لنَقْل البضائع، ولكنها كانت بعيدة، حيث كانت تبدو بحجم ذبابة.

- لو أعرف فقط ماذا تُدعى هذه الجزيرة! - كان يمضي قائلاً. - لو أعرف فقط فيما إذا كانت مأهولة من أناس طيّبين، أعني أناساً، لا يملكون نزعة تعليق الأولاد على أغصان الأشجار، ولكنْ، لِمَنْ أستطيع توجيه هذا السؤال؟ لِمَنْ، إذا كان لا يوجد أحد؟ ...

هذه الفكرة بأنه يتواجد وحيداً، وحيداً، وحيداً في وسط تلك البقعة الخاوية، جعلتْه يشعر بكآبة عميقة، وكان على وشك البكاء، عندما لمح فجأة مرور سمكة كبيرة على مسافة قريبة من الشاطئ، حيث كانت تعوم بهدوء، ورأسها خارج الماء تماماً.

بما أنه لم يعرف كيف يناديها باسمها، صَرَخَ بصوتٍ عالٍ، لكي تتمكّن من سماعه:

- إيه، يا سيّدتي السمكة، هل تسمحين لي بكلمة؟

- بكلمَتَيْنْ أيضاً، - أجابت السمكة، وكانت دلفيناً لطيفاً، قلّما يوجد له مثيل في العالم.

- هل تسمحين وتُخبرينني فيما إذا كانت توجد قرى في هذا البلد، يُمكن أن نأكل فيها دون المخاطرة بأن نُؤكَل؟

- بالتأكيد، -أجاب الدلفين. - بل ستجد واحدة قريبة من هنا.

- وأيّ طريق يجب عليّ أن أسلكَ للوصول إلى هناك؟

- يجب أن تسلكَ ذاك الدرب هناك، إلى اليسار، وأن تمشيَ بشكل مستقيم مقتفياً دائماً أثر أنفكَ، لا يمكنكَ أن تُخطئ.

- أخبريني شيئاً آخراً. أنتِ التي تجوبين البحر ليلاً ونهاراً، هل شاهدتِ بالصدفة زورقاً صغيراً، وبداخله أبي؟

- ومَنْ هو أبوكَ؟

- هو أطيبُ أب في العالم، مثلما أنا أسوأ ولد يُمكن تصوّره.

- مع العاصفة التي حَدَثَت يوم أمس، - أجاب الدلفين، - الزورق ربمّا غرق.

- وأبي؟

- ربمّا انتهى في جوف سمكة القرش الرهيبة، التي وَصَلَت إلى هنا قبل بضعة أيّام، ونشرت الرعب في مياهنا.

- هل هي ضخمة كثيراً سمكة القرش هذه؟ - سأل بينوكيو، الذي كان قد بدأ يرتجف من الخوف.

- إذا كانت ضخمة ... - أجاب الدلفين. - لكي تتمكّن من تكوين فكرة عنها، يمكنني القول إنها أكبر من بناء بخمسة طوابق، وتملك فاهاً عريضاً وعميقاً، حيث يمكن أن يمرّ منه قطار السّكّة الحديدية بحاله مع القاطرة.

- يا أمّاه! - صَرَخَ بينوكيو مرتعباً. وبعدما ارتدى ثيابه بسرعة وارتباك،

التفت نحو الدلفين، وقال له: إلى اللقاء، يا سيّدتي السمكة، أعتذر كثيراً عن إزعاجكِ، وألف شكر للُطفكِ.

بعد أن ردّد تلك الكلمات، سَلَكَ حالاً الدرب، وبدأ يمشي بخطى سريعة، سريعة لدرجة، كان يبدو معها وكأنه يركض. وكلّما كان يسمع أيّة ضجة صغيرة، كان يلتفت فوراً، لينظرَ خلفه، خوفاً من أن يكون ملاحَقَاً من سمكة القرش الرهيبة، التي تعادل بضخامتها بناءً من خمسة طوابق، وبقطار السّكّة الحديدية في فمها.

بعد نصف ساعة من المشي، وَصَلَ إلى بلدة صغيرة، تُدعى "بلدة النحلات العاملات". كانت الشوارع تغصّ بأشخاص يهرولون من هنا ومن هناك من أجل أعمالهم. كانوا كلّهم يعملون، وكلهم يملكون شيئاً ما يُشغلهم. كان لا يمكن العثور على إنسان خامل أو متسكّع حتّى لو تمّ البحث عنه بالشمعة.

- لقد فهمتُ، - قال فوراً ذاك البليد بينوكيو، - هذه البلدة لا تلائمني! أنا لم أُلِدْ لكي أعملَ!

في هذه الأثناء، كان الجوع يؤرّقه، لأنه كان قد مضى أربع وعشرون ساعة، حيث لم يأكل خلالها أيّ شيء، حتّى طبقاً من البقول.

- ما العمل؟

لم يكن أمامه سوى طريقَيْن، لكي يتمكّن من سَدّ رَمَقه: البحث عن عمل صغير، أو طَلَب صَدَقَةَ قرش، أو لقمة من الخبز.

كان يشعر بالخجل من طَلَب الصَّدَقَة: لأن أباه كان قد لقّنه دائماً أن المُسنّين والمُقعَدين فقط يحقّ لهم طَلَبها. الفقراء الحقيقيون في هذا

العالم، الذين يستحقّون المساعدة والشفقة، ليسوا سوى أولئك الذين، بسبب السّنّ أو المرض، يجدون أنفسهم محكومين في أن لا يتمكّنوا من كَسْب لقمة عيشهم بعَرَق أَجْبُنِهِم. الباقون كلهم، يجب عليهم أن يعملوا، وإذا لم يعملوا وعانوا من الجوع، فهذا ما يستحقّونه.

في تلك الأثناء، عبر الشارع رجل، يبدو عليه الإرهاق الشديد، قلّما يبذله من جهد كبير لجَرّ عربتَيْن مُحمَّلَتَيْن بالفحم.

بينوكيو، مُعتقداً من هيئته أنه رجل طيّب، اقترب منه، وأخفض عينَيْه من الخجل، ثمّ قال له بصوت خافت:

- هل تتصدَّق عليّ بقرش، لأنني أشعر وكأنني سأموت من الجوع؟

- ليس قرشاً فحسب، - أجاب الفحّام، - بل سأعطيكَ أربعة قروش، على شرط أن تساعدني في جَرّ هاتَيْن العَرَبَتَيْن من الفحم لغاية البيت.

- أستغرب ذلك! – أجاب بينوكيو شاعراً بالإهانة تقريباً، - لعِلْمكم أنا لم أَقُمْ بدور الحمار أبداً، أنا لم أجرّ عربة في حياتي! ...

- هذا أفضل لكَ! – أجاب الفحّام. – إذنْ، يا بني، إذا كنتَ تشعر حقّاً بقسوة الجوع، كُلْ شريحَتَيْن كبيرَتَيْن من كبريائكَ، واحذرْ من أن تُصابَ بالتخمة.

بعد بضع دقائق، مرّ في الشارع عامل بناء، حيث كان يحمل على كتفه سلّة من الكلس.

- أيّها الرجل الشهم، هل تتصدَّق بقرش لهذا الصبي الفقير الذي يتضوّر جوعاً؟

- بكلِّ سرور، تعال معي، وساعدني في حمل الكلس، - أجاب عامل البناء، - وبدلاً من قرش واحد، سأعطيكَ خمسة.

- ولكن الكلس ثقيل، - ردّ بينوكيو – وأنا لا أريد أن أُتعِبَ نفسي.

- إذا كنتَ لا تريد أن تُتعِبَ نفسكَ، إذنْ، يا ولدي، تمتَّعْ بالتثاؤب، وأتمنّى لكَ الخير.

في أقلّ من نصف ساعة، مرّ عشرون شخصاً آخر، وبينوكيو طَلَبَ منهم جميعاً أن يتصدَّقوا عليه، وجميعهم أجابوه:

- ألا تستحي؟ بدلاً من أن تتسكّع في الشارع، اذهبْ، وابحثْ لنفسكَ عن عمل، وتعلّم كيف تكسب قُوْتَكَ!

أخيراً مرّت امرأة طيّبة، حيث كانت تحمل دلوَيْن من الماء.

- هل تسمحين ليّ، أيّتها المرأة الطّيّبة، بجرعة ماء من دلوكَ؟ - قال بينوكيو حيث كان يشعر بحرقة في حلقه من لهيب العطش.

- تفضّل، يا ولدي! – قالت المرأة وهي تضع الدلوَيْن على الأرض. بعد أن غبَّ الماء كالإسفنج، تمتم بينوكيو بصوت واهن وهو يجفِّف فمه:

- لقد أطفأتِ ظمئي! هل تُخمدين جوعي أيضاً! ...

المرأة الطّيّبة، بسماعها هذه الكلمات، أضافت فوراً:

- إذا ساعدتَني في حَمل أحد هذَيْن الدلوَيْن إلى البيت، سأمنحكَ قطعة كبيرة من الخبز.

بينوكيو نَظَرَ إلى الدلو، ولم يجبْ بنعم أو بلا.

- ومع الخبز، سأمنحكَ طَبَقاً كبيراً من زهرة القرنبيط المتبّل بالزيت والخَلّ – أضافت المرأة الطيّبة.

بينوكيو ألقى نظرة أخرى على الدلو، ولم يجب بنعم أو بلا.

- وبعد زهرة القرنبيط، سأمنحكَ قطعة كبيرة من الملبّس المَحشوّ بشراب الورد.

أمام هذا الإغراء الأخير، بينوكيو لم يتمكّن من الصمود، ومُتسلّحاً بالحزم، قال:

- لا بأس! سأحمل لكِ الدلو لغاية البيت!

كان الدلو ثقيلاً جدّاً، وبينوكيو، بما أنه كان لا يملك القوّة الكافية، ليحملَه بيده، رَضَخَ وحَمَلَهُ على رأسه.

بوصولهما إلى البيت، أجلست المرأة الطيّبة بينوكيو على طاولة صغيرة جاهزة، ووَضَعَت أمامه الخبز، زهرة القرنبيط المُتبّل والحلوى.

بينوكيو لم يأكل الطعام، بل ازدرده. كانت معدته تبدو وكأنها مغارة بلا قرار.

بعد أن هدأت النداءات الغاضبة للجوع رويداً رويداً، عندئذ رَفَعَ رأسه، لكي يشكر مُحْسِنَتَهُ، ولكنْ، لم يكن قد انتهى بعد من التحديق في وجهها، حيث انطلقت منه أووووه طويلة من الدهشة، وبقي مشدوهاً في مكانه، بعَيْنَيْنْ ذاهلَتَيْنْ، وبالشوكة في الهواء، وفمه مليء بالخبز والقرنبيط.

- ما الذي استرعى انتباهكَ، لكي تنتابكَ هذه الدهشة كلها؟ – قالت المرأة الطيّبة وهي تضحك.

- أنتِ ... – أجاب بينوكيو مُتلعثماً، -أنتِ ... أنتِ ...أنتِ تشبهينها ... أنتِ تذكّرينني ... أجل، أجل، أجل، بنبرة الصوت نفسها ... العينَيْن نفسَيْهما ... الشَّعر نفسه ... أجل، أجل، أجل ... أنتِ أيضاً تملكين شَعراً أزرق ... مثلها! ... آه، يا حوريّتي! ... آه، يا حوريّتي! ... قولي لي بأنكِ أنتِ، أنتِ بالذات! ... سوف لن تتركيني أبكي ثانية! لو تعلمين! ... كم بكيتُ وكم عانيتُ ...

* * *

XXV

بينوكيو يَعِدُ الحورية بأن يكونَ قويماً، وأن يدرسَ، لأنه ضجر من دور الدمية ويريد أن يتحوّلَ إلى ولد طيّب.

في البداية، المرأة الطّيّبة ادّعت أنها ليست الحورية الصغيرة ذات الشَّعر الأزرق. لكنْ، لاحقاً، أي بعد أن أيقنتْ أن أمرها قد انكشف، وأنه لا داع لإطالة اللعبة، انتهتْ بأن عرَّفت عن نفسها، وقالت لبينوكيو:

- يا لكَ من دمية خبيثة! كيف اكتشفتَ أمري؟

- المودّة التي أحفظها لكِ هي التي مكَّنتْني من ذلك.

- هل تذكر؟ لقد تركتَني طفلة، والآن تجدني امرأة، امرأة ناضجة، حيث يمكنني تقريباً أن أكونَ أُمّكَ.

- يسرّني ذلك كثيراً، فبهذه الطريقة، بدلاً من شقيقتي الصغيرة، سأناديكِ أمّي. منذ وقت طويل وأنا أحنّ لامتلاك أمّ مثل بقية الأولاد! ... لكنْ، كيف استطعتِ أن تكبري بهذه السرعة؟

- إنه سرّ.

- علّميني إيّاه، أريد أن أكبر قليلاً أنا أيضاً. ألا ترين؟ لقد بقيتُ دائماً قصيراً مثل قزم.

- ولكنْ، أنتَ لا يمكنكَ أن تكبرَ، - ردّت الحورية.

- لماذا؟

- لأن الدُّمى لا تكبر أبداً. تُولد دُمىً، تعيش دُمىً، وتموت دُمىً.

- أوه! أنا ضَجِرٌ من القيام دائماً بدور الدمية! - صَرَخَ بينوكيو، وهو يرفع كتفه - لقد حانت الساعة، لكي أتحوّل أنا، أيضاً، إلى رجل مثل الآخرين كلهم.

- وسوف تتحوّل إلى ذلك، إن كنتَ تستحقّه ...

- حقّاً؟ وماذا يمكنني أن أفعل لكي أستحقّ ذلك؟

- إنه لأمر سهل جدّاً: يجب أن تعتاد على أن تكونَ ولداً مهذّباً.

- هل هذا يعني أنني لستُ مهذّباً؟

- الأولاد المهذّبون مطيعون، بينما أنتَ ...

- بينما أنا أمارس التّشرّد والتّسكّع طوال العام ...

- الأولاد المهذّبون يقولون دائماً الحقيقة.

- وأنا أقول دائماً الأكاذيب.

- الأولاد المهذّبون يذهبون إلى المدرسة من تلقاء أنفسهم ...

- بينما المدرسة تُسبّب لي آلاماً لا تُطاق. ولكنْ، من اليوم فصاعداً، أريد أن أغيّر من نمط حياتي.

- هل تَعِدُني بذلك؟

- أجل، أعِدُكِ بذلك. أريد أن أتحوّلَ إلى ولد مهذّب، وأريد أن أكونَ عزاء لأبي. أين يمكن أن يكون أبي في هذه اللحظة؟

- لا أعرف.

- هل سأكون أبداً محظوظاً في رؤيته ومعانقته؟

- أجل، بل أنا واثقة من ذلك.

كان سرور بينوكيو هائلاً لدى سماعه هذه الإجابة، حيث أمسك بيَدَيّ الحورية، وبدأ يُقبّلهما باندفاع كبير، بدا معه وكأن خَرَجَ عن طَوْره. بعد ذلك، رَفَعَ رأسه وناظراً إليها بحنان، قال:

- قولي لي، يا أُمّاه: إذنْ، ليس صحيحاً أنكِ ميّتة؟

- على ما يبدو، -أجابت الحورية وهي تبتسم.

- لو تعلمين مدى الألم والحُرْقة التي جرَّبتُها، عندما قرأتُ: هنا ترقد ...

- أعرف ذلك: ولهذا السبب سامحتُكَ. ألمكَ الصادق جعلني أكتشف أنكَ تملك قلباً طيّباً: ويمكن دائماً أن ننتظر شيئاً ما من الأولاد الطّيّبين، حتّى ولو كانوا طائشين ومشاكسين بعض الشيء: أو بالأحرى، يمكن دائماً أن نأمل بأنهم سيعودون إلى صوابهم. لهذا السبب جئتُ لغاية هنا للبحث عنكَ. أنا سأكون أمّكَ ...

- آه! يا للروعة! – صَرَخَ بينوكيو وهو يقفز من الفرح.

- أنتَ ستُطيعني، وستفعل كلّ ما أقوله لكَ.

- بطيبة خاطر، بطيبة خاطر، بطيبة خاطر!

- اعتباراً من يوم غد، - أضافت الحورية، - ستبدأ في ارتياد المدرسة.

فَقَدَ بينوكيو فوراً شيئاً من سروره.

- وبعد ذلك، ستختار مهنة أو حرفة تروقكَ ...

بينوكيو أصبح جدّيّاً.

- ماذا تُهَمْهِم بصوت خافت؟ - سألت الحورية بلهجة غاضبة.

- كنتُ أقول ... – تمتم بينوكيو بصوت واهن، - إن الوقت أصبح متأخّراً بعض الشيء لارتياد المدرسة ...

- كلا، يا أيّها السّيّد. يجب أن تعرف أنه، لكي تتعلّم وتبني نفسكَ، الوقت ليس متأخّراً أبداً.

- ولكنْ، أنا لا أريد أن أتعلّم حرفة أو مهنة ...

- لماذا؟

- لأن العمل يُتعبني.

- يا بنيّ، - قالت الحورية، - أولئك الذين يَروون مثل هذه الترّهات، ينتهون دائماً تقريباً إمّا في الملجأ أو في السجن. يجب أن تعرف أن الإنسان، سواء وُلِدَ غنياً أم فقيراً، هو مُجْبَرٌ على ممارسة مهنة ما، القيام بعمل ما في هذا العالم. الويل إذا استكان للكسل! الكسل مرض سيّئ جدّاً، يجب معالجته حالاً: في حال العكس، عندما نكبر، لا يمكن معالجته أبداً.

هذه الكلمات لامست نَفْس بينوكيو، الذي قال للحورية وهو يرفع رأسه بحيوية:

- أنا سأدرس، أنا سأعمل، أنا سأفعل كل ما ستقولينه ليّ، لأنه، في نهاية الأمر، حياة الدُّمى بدأت تُضجرني، وأريد أن أتحوّلَ إلى ولد، بأيّ ثمن. لقد وعدتِني بذلك، أليس صحيحاً؟

- صحيح، والآن، الأمر متعلّق بكَ.

* * *

XXVI

بينوكيو يذهب بصحبة رفقائه في المدرسة إلى شاطئ البحر، لكي يشاهدَ سمكة القرش الرهيبة.

في اليوم التالي، بينوكيو ذَهَبَ إلى المدرسة الحكومية.

تصوّروا أولئك الأولاد الخبثاء، عندما شاهدوا دخول دمية إلى مدرستهم! انتابهم ضحك جنوني لا يُوصَف. كان هنالك مَنْ ينصب له مقلباً، مَنْ يُتبعه بمقلب آخر، مَنْ ينتزع القبّعة من يده، مَنْ يشدّ سترته من الخلف، مَنْ يحاول أن يرسمَ له بالحبر شاربَيْن كبيرَيْن تحت أنفه، ومَنْ كان مُستغرقاً حتّى في رَبْط خيوط إلى يَدَيْه وقَدَمَيْه، لكي يجعلَهُ يرقص مثل القراقوز.

بينوكيو، تعمّد لبعض الوقت اللامبالاة، وتَرَكَ الأمور تسير على هواها، ولكنْ، في النهاية، أحسّ بأنه بدأ يفقد صبره، عندئذ التفت إلى أولئك الذين كانوا يُصرّون على مضايقته والسخرية منه، وقال لهم وهو يرسم على وجهه قناعاً من الصلابة:

- خذوا حذركم، يا أولاد: أنا لم آتِ إلى هنا لأصبح مُهرّجاً لكم. أنا أحترم الآخرين، وأريد منكم أن تحترموني بدوركم.

- أحسنتَ ...! لقد تكلّمتَ مثل كتاب مطبوع! - صَرَخَ أولئك الأولاد المشاغبون وهم يضحكون بملء أفواههم: وأمّا الأكثر وقاحة من الآخرين، فقد مَدّ يده ليشدَّه من أنفه.

ولكنه لم يتمكّن من ذلك: بينوكيو مَدّ قَدَمَهُ تحت الطاولة، ورَكَلَهُ على قَصبة رِجْلِهِ.

- آه! يا للقَدَم الصلبة! - صَرَخَ الولد وهو يَفرُك الكدمة التي سبّبها له بينوكيو.

- وأيّة أكواع! ... إنها أكثر صلابة من القَدَمَيْن! - قال آخر كان تلقّى بسبب مزاحه السخيف لكزة على معدته.

بالنتيجة، بعد تلك الركلة واللكزة، بينوكيو كسب فوراً احترام ومحبّة أولاد المدرسة كلهم، فبدؤوا يداعبونه، ويحبّونه من أعماق قلوبهم.

ومعلّم الحصّة كان يمتدحه أيضاً، لأنه كان يقظاً، مجدّاً وذكياً، كان أوّل مَنْ يصل إلى المدرسة، وآخر مَنْ ينهض على قَدَمَيْه بانتهاء الدوام.

العلّة الوحيدة التي كان يملكها، هي معاشرته لرفاق كثيرين، وكان من بينهم أولاد كثيرون مشهورون بقلّة اهتمامهم بالدراسة والمثابرة.

مُعلّم الحصّة كان ينبّهه كلّ يوم، وحتّى الحورية الطيّبة كانت لا تتوانى من تنبيهه إلى هذا الأمر باستمرار:

- حذار، يا بينوكيو! رفقاء السوء في المدرسة، عاجلاً أم آجلاً، سينتهون بأن يجعلوكَ تكره الدراسة، وربّما أيضاً، سيُورِّطونكَ في مشاكل، أنتَ في غنى عنها.

- لا توجد أيّة خطورة في الأمر! – أجاب بينوكيو وهو يهزّ كتفَيْه، ويلامس جبهته برأس سبّابته، كما لو أنه يريد القول: "أملك هنا الكثير من العقل!".

ولكنّ ما حَدَثَ بعد ذلك، أنه في صباح يوم جميل، بينما بينوكيو كان في طريقه إلى المدرسة، التقى بمجموعة من رفقائه الاعتياديين، الذين ذهبوا لملاقاته، وقالوا له:

- هل سمعتَ بهذا الخبر العظيم؟

- لا.

- لقد وَصَلَتْ إلى البحر القريب من هنا سمكة قرش ضخمة، بحجم جبل.

- حقّاً؟ ... ألا تكون سمكة القرش نفسها التي كانت متواجدة عندما غرق أبي المسكين؟

- نحن سنذهب إلى الشاطئ لرؤيتها. هل تأتي معنا؟

- أنا؟ لا، أريد أن أذهب إلى المدرسة.

- وماذا يعنيكَ من المدرسة؟ سنذهب إلى المدرسة غداً. بدَرْسٍ أقلّ، أو بدَرْسٍ أكثر، نبقى دائماً الحمير نفسها.

- وماذا سيقول المعلّم؟

- دعْهُ يقول ما يشاء، إنه يتقاضى راتباً، لكي يُهَمْهِمَ طوال النهار.

- وأمّي؟ ...

- الأمّهات لا يعرفنَ أيّ شيء دائماً، - أجاب أولئك المشاغبون.

- أتعرفون ماذا سأفعل؟ - قال بينوكيو. أريد أن أرى سمكة القرش لأمر يخصّني ... ولكنْ، سأذهب لرؤيتها بعد المدرسة.

- يا للحمار المسكين! – ردّد أحد أعضاء المجموعة. – هل تعتقد أن سمكة بذلك الحجم الهائل ستبقى هناك طَوْعاً لرغبتكَ؟ حالما ستشعر بالضجر، سوف تتّجه إلى مكان آخر، وعندئذ مَنْ كان حاضراً كسب، ومَنْ كان غائباً خسر.

- كم من الوقت يستغرق الوصول إلى الشاطئ؟ - سأل بينوكيو.

- ساعة تقريباً، سنذهب ونعود في الوقت المناسب.

- هيّا، فلننطلق، إذنْ! ومَنْ يركض أكثر من الآخرين هو الشاطر! – صَرَخَ بينوكيو.

بعد أن أعطى إشارة الانطلاق، تلك المجموعة من الأولاد المشاغبين، متأبّطين كُتُبهم وكرّاساتهم، بدؤوا يركضون عبر الحقول، وبينوكيو كان في مقدّمة الجميع دائماً: كان يبدو وكأنه يملك قَدَمَيْن مُجنّحَتَيْن.

بين فترة وأخرى، ملتفتاً إلى الوراء، كان يسخر من رفقائه الذين بقوا على مسافة كبيرة منه، وبرؤيتهم يلهثون مُنهكين، تغطّيهم الغبار، وألسنتهم خارج أفواههم، كان يضحك من قلبه كله. سيّئ الحظّ ذاك، كان لا يعي مدى الخوف والمصائب الرهيبة التي كانت بانتظاره! ...

* * *

XXVII

شجار عنيف بين بينوكيو وأصحابه: رجال الدَّرَك يقبضون على بينوكيو، لأن أحد رفاقه سَقَطَ جريحاً.

بوصولهم إلى الشاطئ، ألقى بينوكيو نظرة متأنّية على البحر، ولكنه لم يرَ أيّة سمكة قرش.

كان البحر هادئاً مثل مرآة كبيرة من الكريستال.

- وأين سمكة القرش؟

- ربمّا ذَهَبَت لكي تتناول طعام فطورها، -أجاب واحد منهم وهو يضحك.

- أو ربمّا استلقت على السرير، لتغفوَ قليلاً، -أضاف آخر، وهو يضحك بكل ما أوتي من قوّة.

استناداً إلى تلك الإجابات الخاوية والضحكات الحمقاء، أدرك بينوكيو أن أصحابه كانوا قد هيّؤوا له دعابة سيّئة بسَرْدهم له قصّة غير صحيحة، وبما أنه لم يستسغْها، قال لهم ساخطاً:

- والآن؟ ماذا جنيتُم من روايتكم لي قصّة سمكة القرش الوَهْمية هذه؟

- حتماً، لقد جنيْنا شيئاً ما! ... – أجابوا بصوت واحد أولئك الأولاد المشاغبون.

- وما هو هذا الشيء؟ ....

- هو أن نجعلَكَ تغيب عن المدرسة، وأن نجعلَكَ تأتي معنا. ألا تخجل من أن تحضر الدروس كل يوم بهذه الدقّة وبهذا النشاط؟ ألا تخجل من أن تدرسَ بهذه الهمّة الكبيرة؟ ما الذي يدفعكَ إلى ذلك؟

- وماذا يعنيكم فيما إذا كنتُ أدرس أم لا؟

- هذا يعنينا كثيراً، لأنكَ تُجبرنا أن نبدوَ كسولين أمام المعلّم ....

- لماذا؟

- لأن التلاميذ المُجدّين يدفعون دائماً إلى الواجهة أولئك الذين لا يرغبون في الدراسة، مثلنا نحن، حيث لا نريد أن نبدوَ للعيان، لأننا نحن أيضاً نملك هواياتنا الخاصّة! ..

- وماذا عليّ أن أفعل، إذنْ، لكي أرضيكم؟

- يجب أن تضجر أنتَ أيضاً من المدرسة، من الدروس، ومن المعلّم، أعدائنا الثلاثة الكبار.

- وماذا لو أردتُ متابعة الدراسة؟

- سوف نبتعد عنكَ، وسوف تدفع الثمن غالياً في أوّل فرصة! ...

- في الحقيقة، أنتم تضحكونني تقريباً، - قال بينوكيو وهو يهزّ رأسه.

- إيه، بينوكيو! – صَرَخَ عندئذ أكبرهم سنّاً، متّجهاً نحوه. – دع الغطرسة جانباً، واهدأ! ... لأنكَ إذا كنتَ لا تخشانا، فنحن أيضاً لا نخشاكَ! تذكّر أنّكَ وحدكَ، ونحن عددنا سبعة.

- سبعة مثل الخطايا المُميتة، -قال بينوكيو بضحكة كبيرة.

- هل سمعتُم؟ لقد شَتَمَنَا جميعاً! نادانا باسم الخطايا المميتة! ...

- بينوكيو! اعتذرْ منّا عن الإهانة ... وإلاّ فالويل لكَ! ...

- كوكووو! – صاح بينوكيو وهو يدقّ بسبّابته على ذؤابة أنفه ساخراً منهم.

- بينوكيو! الأمور ستسوء! ...

- كوكووو!

- ستنال من الضرب ما لا يتحمّله حمار! ...

- كوكووو!

- ستعود إلى البيت بأنف مكسور! ...

- كوكووو!

- سأريكَ أنا الآن مَنْ هو الكوكووو! – صَرَخَ أكثرهم شجاعة من شلّة المشاغبين. – في هذه الأثناء، خذ هذه اللكمة، وقيّدها على الحساب.

وبقوله هذا أنزل لكمة على رأسه.

وتحوّل الأمر كما يقال عادة إلى كَرٍّ وفَرٍّ، لأن بينوكيو، كما كان يُنتظَر منه، أجاب بلكمة مضادّة، وهناك، بين لحظة وأخرى، أصبح الصراع بينهم عامّاً وشرساً.

بينوكيو، رغم أنه كان بمفرده، إلا أنه دافع عن نفسه بشراسة. كان يستخدم رجلَيْه الخشبيَّتَيْن القاسيَتَيْن بطريقة جيّدة، بحيث كان يُجبر أعداءَهُ على البقاء على مسافة معقولة منه. حيثما تصل وتلمس قَدَمَيْه، كانت تترك دائماً كدمات داكنة.

عند ذلك الحدّ، أي عندما اكتشف الأولاد أنهم سوف لن يستطيعوا مقارعته وجهاً لوجه، فكّروا جيّداً بأن يستخدموا القذائف، وبعد أن فكّوا رزم كُتُبهم المدرسية، بدؤوا يقذفونه بكُتُب القراءة، مبادئ النَّحْو، حكايات ثوآر، قصّة الصوص لباتشيني وغيرها من الكُتُب المدرسية: ولكن بينوكيو، الذي كان خبيثاً وسريع البديهة، كان يتفاداها كلها في الوقت المناسب، والمجلّدات، بعد أن كانت تمرّ من فوق رأسه، كانت تنتهي جميعاً في البحر.

تصوّروا الأسماك! الأسماك، باعتقادها أن الكُتُب أشياء قابلة للأكل، كانت تهرع أفواجاً على سطح الماء، ولكنْ، بعد أن تذوّقت بعض الصفحات وبعض الأغلفة، لفظتْها فوراً بامتعاض، كما لو أنها تقول: "إنها بضاعة لا تُناسبنا: نحن معتادون على تناول أطعمة أفضل من هذه بكثير!".

في هذه الأثناء، بينما كان القتال يزداد شراسة، ها ذا سَلْطَعُون كان قد خَرَجَ من الماء وتسلّق الشاطئ ببطء، يصرخ بصوت مبحوح، كما لو أنه مُصاب بالزكام:

- كفى، حقّاً أنكم أطفال! هذه المناوشات اليدوية بين الأولاد نادراً ما تنتهي على خير، إذ غالباً ما تنتهي بمصيبة! ...

يا للسَّلْطَعُوْن المسكين! كما لو أنه تكلّم للريح. بالعكس، بينوكيو، ذلك الوغد الطائش، ملتفتاً إلى الوراء، وناظراً إليه بعداوة، قال له بفظاظة:

- اخرسْ، أيّها السَّلْطَعُوْن المملّ! ... ستفعل حسناً لو تناولتَ حَبَّتَيْن من الطحالب لكي تُشفى من الزكام الذي أصاب حلقكَ. اذهبْ إلى السرير، وحاولْ أن تَعْرَقَ!

في تلك الأثناء، اثنان من الأولاد، اللذان كانا قد انتهيا من قَذْف جميع الكُتُب، شاهدا على مسافة قريبة رزمة كُتُب بينوكيو، فاستوليا عليها في أقلّ من لمح البصر.

كان يوجد بين هذه الكُتُب، كتاب مُغلّف بكرتون سميك، بضلع وبرؤوس من الورق القاسي. كان كتاب " دراسة في علم الحساب". أترك لتقديركم فيما إذا كان وزنه ثقيلاً!

واحد من أولئك الأولاد، أمسك بالكتاب، ومصوّباً إيّاه نحو رأس بينوكيو، قذفه بكل ما أُوتيت ذراعه من قوّة: ولكنْ، بدلاً من أن يصيب بينوكيو، أصاب أحد رفاقه في رأسه، الذي تحوّل لونه إلى أبيض ناصع، ولم ينطقْ سوى هذه الكلمات:

- آه، يا أمّي، ساعديني ... لأنني أموت!

ثمّ سَقَطَ بثقله كله على رمل الشاطئ.

برؤية ذلك الميّت الصغير، بعد أن انتابهم الفزع، بدأ الأولاد يهربون، وخلال دقائق قليلة، كانوا قد اختفوا عن الأنظار.

ولكن بينوكيو بقي هناك، ورغم الألم والخوف، ورغم كونه هو أيضاً ميّتاً أكثر ممّا هو حيّ، هُرع ليغمس منديله في ماء البحر، وجلس يُبلّل صدغ رفيق الدراسة المسكين. وفي أثناء ذلك، كان يبكي بغزارة، ويائساً كان يناديه باسمه، ويقول:

- يوجينيو! ... يوجينيو، يا صديقي المسكين! ... افتحْ عينَيْكَ، وانظرْ إليّ! ... لماذا لا تجيبني؟ لم أكن أنا مَنْ قَذَفَكَ بالكتاب، وسبّبَ لكَ هذا الألم كله! صدِّقني، أنا لم أفعل ذلك! ... افتحْ عينَيْكَ، يا يوجينيو ... إذا تركتَ عينَيْكَ مُغمّضَتَيْنِ، ستجعلني أموت أنا أيضاً... يا إلهي! كيف يمكنني العودة إلى البيت الآن؟ ... بأيّ وجه يمكنني أن أعودَ إلى أمّي الطيّبة؟ ماذا سيكون عليه حالي؟ ... أين سأهرب؟ ... أين يمكنني أن أختبئ؟ ... أوه! كم كان أفضل، ألف مرّة أفضل، لو كنتُ قد ذهبتُ إلى المدرسة! ... لماذا أصغيتُ إلى رفاقي هؤلاء، الذين هم لعنتي؟ ... والمعلّم كان قد نبّهني! ... وأمّي كانت قد كرّرت ليّ مراراً: "خذْ حذركَ من رفاق السوء!". ولكنْ، أنا عنيد ... صعب المراس ... أترك الآخرين يقولون، وفي النهاية، أفعل ما يحلو ليّ! ... وبعد ذلك، أنا أدفع الثمن ... لقد ذَهَبَت الأمور على هذا المنوال منذ أن جئتُ إلى هذا العالم، لم أمتلكْ حتّى ربع ساعة من الطمأنينة. يا إلهي! ماذا سيحلّ بي، ماذا سيحلّ بي، ماذا سيحلّ بي؟ ...

وبينما كان يتابع البكاء والصراخ وإنزال اللكمات على رأسه ونداء يوجينيو المسكين باسمه، سمع فجأة أصوات خطوات تقترب منه:

استدار إلى الخلف، فرأى اثنَيْن من رجال الدَّرَك.

- ماذا تفعل هكذا ممدّداً على الأرض؟ - سألا بينوكيو.

- أساعد زميلي في المدرسة هذا.

- هل أُصيب بوعكة؟

- يبدو ذلك ...

- أيّة وعكة! - قال أحد الدَّرَكيَّيْن، منحنياً ومحدِّقاً في يوجينيو عن قرب. - هذا الولد أُصيب بجرح في صدغه: مَن الذي جرحه؟

- لستُ أنا، - تلعثم بينوكيو الذي كان في قمّة ارتباكه.

- إن لم تكن أنتَ، إذنْ، مَنْ فعل ذلك؟ مَن الذي سبّب له هذا الجرح؟

- لستُ أنا، - أجاب بينوكيو.

- وكيف جُرِحَ؟

- بهذا الكتاب. - والتقط بينوكيو من الأرض كتاب " دراسة في علم الحساب"، المجلّد بالكرتون لكي يريه للدَّرَكيَّيْن.

- ولمَنْ هذا الكتاب؟

- ليّ.

- يكفي هكذا، لا داعي لأن تضيف شيئاً آخراً، انهض حالاً، وتعال معنا.

- ولكنْ، أنا ...

- هيّا!

- ولكنْ، أنا بريء ...

- هيّا، تعال معنا!

قبل أن ينطلقوا، نادى رجال الدَّرَك بعض الصّيّادين الذين كانوا يمرّون في تلك اللحظة بقواربهم بمحاذاة الشاطئ، وقالوا لهم:

- سنأتمنكم هذا الولد المصاب في رأسه، اجلبوه إلى بيتكم، واعتنوا به، ونحن سنرجع غداً، لنطمئنّ عليه.

وبالتالي استدارا نحو بينوكيو، وبعد أن وَضَعَاه بينهما، أمراه بلهجة عسكرية:

- هيّا، إلى الأمام، امشِ بسرعة، وإلا ستكون عاقبتكَ وخيمة!

دون أن يدعهما يكرّران ما قالاه، بدأ بينوكيو يمشي على ذلك الدرب الذي يقود إلى البلد، ولكن البائس المسكين أصبح لا يعرف حتّى في أيّ عالم يعيش. كان يبدو له وكأنه يحلم، وأيّ حلم سيّئ! كان مشتّت الذهن، وعيناه تريان كل شيء مضاعفاً، بينما رجلاه كانتا ترتعشان، ولسانه كان قد التصق بحلقه، ولم يعد بإمكانه النطق بكلمة واحدة. مع ذلك، في خضمّ تلك الحماقة والضياع، شوكة حادّة جدّاً كانت تنغز قلبه، ألا وهي التفكير في أن يمرّ من تحت نافذة بيت الحورية الطيّبة، برفقة الدَّرَكيَّيْن، إذ كان يفضّل الموت على ذلك.

كانوا بصدد الدخول إلى البلدة، عندما انتزعت هبّة ريح قوية قبّعة بينوكيو من رأسه، وألقت بها على مسافة عشر خطوات.

- لو سمحتُم، - قال بينوكيو للدَّرَكيَّيْن، - أريد أن أذهبَ وأستعيدَ قبّعتي؟

- اذهبْ، ولكنْ، بسرعة.

ذَهَبَ بينوكيو، والتقط القبّعة ... ولكنْ، بدلاً من أن يضعها على رأسه، وَضَعَها بين أسنانه، ثمّ بدأ يركض بكل قوّته نحو شاطئ البحر. كان يركض مثل طلقة بندقية.

رجلا الدَّرَك، بعدما أدركا أنه من الصعب اللحاق به، تَرَكَا خلفه كلب حراسة ضخماً، والذي كان قد فاز بالمرتبة الأولى في كلّ مسابقات العَدْوِ

للكلاب. كان بينوكيو يركض، والكلب يعدو أكثر منه: لهذا السبب، كان الناس كلهم يُطلّون من النوافذ، ويحتشدون في وسط الطريق، قلقين لرؤية نهاية هذا السباق الجموح.

ولكنهم لم يحظوا بهذه الخاتمة، لأن كلب الحراسة وبينوكيو تَرَكَا خلفهما عبر الطريق غباراً كثيفاً، حيث جُعلت الرؤيا تنعدم بعد بضع دقائق.

* * *

XXVIII

بينوكيو يكاد ينتهي في المقلاة مثل سمكة.

في أثناء ذلك الجري اليائس، أمضى بينوكيو لحظة رهيبة، تراءى له خلالها أن أمره قد انتهى: لأن أليدورو (كان هذا هو اسم كلب الحراسة)، بمثابرته على متابعة الجري دون أن يتوقّف للحظة واحدة، كان قد لحق به تقريباً.

يكفي أن نذكر أن بينوكيو كان يحسّ خلفه، على مسافة شبر واحد، باللهاث المضطرب لذلك الوحش، وكان يشعر حتّى بحرارة أنفاسه.

لحسن حظّه، كان الشاطئ قد أصبح قريباً، والبحر كان قد أصبح على بُعد عدّة خطوات.

حالما وَصَلَ إلى الشاطئ، قام بينوكيو بقفزة رائعة، كما يمكن أن تقوم بها ضفدعة، وذَهَبَ ليسقط في وسط الماء. أليدورو كان يريد أن يتوقّف، ولكنه لم يتمكّن من كَبْح اندفاعه، لذا سَقَطَ في الماء هو أيضاً. ولسوء حظّه، كان لا يجيد السباحة، لذلك بدأ فوراً يخبط بقَدَمَيْه لكي يطفو على سطح الماء. ولكنْ، بقدر ما كان يخبط بقَدَمَيْه، بقدر ما كان يغطس أكثر تحت الماء.

عندما تمكّن من وَضْع رأسه مجدّداً خارج سطح الماء، كانت عيناه الجاحظتان تطفحان بالخوف. كان ينبح ويصرخ مستنجداً:

- أنا أغرق! أنا أغرق!

- إلى الجحيم! - أجابه بينوكيو من بعيد، الذي كان يشعر بالأمان من أيّ خطر.

- ساعدني، يا عزيزي بينوكيو! ... أنقدني من الموت! ...

أمام تلك الصرخة المؤلمة، تأثّر بينوكيو، الذي كان في نهاية الأمر يملك قلباً في منتهى الطيبة، ثمّ التفت نحو الكلب، وقال له:

- ولكنْ، إذا ساعدتُكَ لكي تنجو، هل تعدني بأن لا تضايقني، وألا تجري ورائي؟

- أعدكَ بذلك! أعدكَ بذلك! أسرعْ، بحقّ السّماء، لأنكَ إذا تردّدتَ لحظة أخرى، سأكون في عدّاد الأموات.

تردّد بينوكيو قليلاً: ولكنْ، عندما تذكّر أن أباه كان قد كرّر على مسامعه أكثر من مرّة أنه لا يجب التردّد أبداً أمام فِعْل الخير، ذَهَبَ عائماً ليصل إلى أليدورو، ومُمسكاً به من ذيله بكلتا يَدَيْه، جلبه سالماً إلى رمل الشاطئ الجافّ.

كان الكلب المسكين لا يقوى على الوقوف على قَدَمَيْه، فقد شرب دون إرادته كثيراً من الماء المالح، وكان بطنه قد انتفخ مثل بالون. مع ذلك، لم يشأ بينوكيو أن يثقَ به كثيراً، وارتأى أنه من الأفضل أن يُلقي بنفسه في البحر مجدّداً. وبعد أن ابتعد عن الشاطئ، صاح بصديقه الناجي:

- وداعاً، يا أليدورو، أتمنّى لكَ رحلة ممتعة، بلّغْ تحياتي إلى الأصدقاء!

- وداعاً، يا بينوكيو، - أجاب الكلب، - أشكركَ كثيراً، لأنكَ أنقذتَني من موت مُحتّم. لقد قمتَ بعمل كبير من أجلي: وفي هذا العالم، ستجني دائماً ثمرة ما تفعله. إذا صادفتْنا الفرصة، سنتكلّم عن هذا الموضوع.

تابع بينوكيو العَوْمَ، دون أن يبتعدَ كثيراً عن اليابسة. أخيراً، بدا له أنه وَصَلَ إلى مكان آمن، ألقى بنظرة إلى الشاطئ، فرأى بين الصخور شيئاً أشبه ما يكون بكهف، حيث كان يتصاعد منه عمود طويل من الدخان.

- حتماً هنالك نار في ذلك الكهف، - قال حينئذ في نفسه، - يا للحظّ! سأذهب لأجفّف ثيابي وأُدفئ نفسي، وفيما بعد؟ ... وليكنْ ما يكون فيما بعد.

بعد اتّخاذه هذا القرار، اقترب من الصخور الناتئة في البحر، ولكنْ، عندما همّ بتسلّقها، أحسّ بشيء يرتفع من تحت الماء، كان هذا الشيء يرتفع ويرفع بينوكيو معه. حاول الهرب فوراً، ولكن الوقت كان متأخّراً. كانت دهشته عظيمة عندما وَجَدَ نفسه فجأة داخل شبكة كبيرة وسط أعداد هائلة من أسماك مختلفة الأشكال والأحجام، حيث كانت تتخبّط بيأس مستميت.

ورأى في الوقت نفسه صيّاداً قبيحاً، يخرج من الكهف. كان قبيحاً جدّاً، لدرجة أنه كان يبدو كوحش بَحْري ضارٍ. إذ بدلاً من الشَّعر، كان يملك على رأسه دغلاً كثيفاً جدّاً من الأعشاب الخضراء، وبشرته كانت خضراء أيضاً، مثل لون عينَيْه، ولحيته الطويلة التي كانت تطال الأرض. كان يبدو كسِحْلِيَّة منتصبة على قَدَمَيْها الخلفيَّتَيْن.

عندما انتهى الصّيّاد من إخراج الشبكة من البحر، صاح بابتهاج:

- فليتبارك اسم الرّبّ! اليوم أيضاً أستطيع أن أهيّئ مأدبة عظيمة من الأسماك!

- لحسن الحظّ، أنا لستُ سمكة! – قال بينوكيو في نفسه، مستعيداً بعضاً من شجاعته.

جلب الصّيّاد الشبكة المليئة بالأسماك إلى داخل الكهف المظلم والعابق بالدخان. كانت هنالك مقلاة، تتوسّط الأرض، يغلي فيها الزيت، وتنبعث منها رائحة واخزة.

- فلنرَ الآن ماذا اصطدْنا من الأسماك! – قال الصّيّاد الأخضر، ثمّ دسّ يده الضخمة التي كانت تبدو مثل مجرفة فرّان في الشبكة، وأخرج منها حفنة من سمكات البوري:

- لذيذة سمكات البوري هذه! – قال وهو ينظر إليها ويشمّها بمداراة، وبعد أن شمّها، قذف بها إلى مِصْولٍ، لا يحتوي على ماء.

ثمّ كرّر أكثر من مرّة العملية نفسها، وبينما كان يغترف الأسماك الأخرى على التوالي، كان يسيل لعابه، ويردّد ببهجة:

- لذيذة سمكات النازِليّ هذه!

- لذيذة سمكات البوري هذه!

- لذيذة سمكات موسى هذه!

- لذيذة ضفادع البحر هذه!

- جميلة سمكات الأنشوف هذه برؤوسها الصغيرة! ...

كما يمكنكم أن تتصوّروا، سمكات النازليّ، سمكات موسى، ضفادع البحر وسمكات الأنشوف، انتهت جميعها بلا انتظام في المِصْول، لكي تبقى بصحبة أسماك البوري.

كان بينوكيو آخر مَنْ بقي في الشبكة.

حالما أخرجه الصّيّاد من الشبكة، جحظ عينَيْه الخضراوَيْن من الدهشة، وصاح بخوف تقريباً:

- أيّ نوع من السمك هذا؟ لا أذكر أنني أكلتُ سمكة، لها مثل هذه الهيئة.

وعاد ينظر إليه باهتمام، وبعد أن حدَّق فيه من الأطراف كلها، انتهى إلى القول:

- لقد فهمتُ: يجب أن يكون سَلْطَعُوْن بحر.

عندئذ، قال بينوكيو بنبرة غاضبة، لأن الصّيّاد اعتقد أنه سَلْطَعُوْن بَحْري:

- ماذا دهاكَ، يا أيّها الرجل؟ أيّ سَلْطَعُوْن هذا الذي تدَّعيه؟ احذرْ، كما تعاملني! أنا لعِلمكَ قراقوز.

- قراقوز؟ - ردّ الصّيّاد. - أقول الحقّ، سمكة القراقوز بالنسبة لي سمكة جديدة! هذا أفضل! سألتهمكَ بكل سرور.

- تلتهمني؟ ولكنْ، ألا تفهم أنني لستُ سمكة؟ أو أنكَ لا تسمع أنني أتكلّم وأفكّر مثلكَ؟

- هذا صحيح تماماً -أضاف الصّيّاد، -وبما أنني أرى أنكَ سمكة تملك ملكة الكلام والتفكير مثلي، أريد أن أعاملكَ بما يليق بمستواكَ من الاحترام.

- وكيف ستكون هذه المعاملة؟ ...

- كعلامة صداقة واحترام خاصّ، سأترك لكَ اختيار الطريقة التي تريد أن تُطبَخ بها. هل ترغب أن تُقلى في المقلاة، أو أنكَ تُفضِّل أن تُطهَى في القِدْر مع مرقة البندورة؟

- في الحقيقة، -أجاب بينوكيو، - إذا كان عليّ أن أختار، أُفضّل أن يُطلق سراحي، لكي أتمكّن من العودة إلى بيتي.

- أنتَ تمزح بلا شك؟ هل يبدو لكَ أنني أريد أن أفقد فرصة تذوُّق سمكة نادرة كهذه؟ لا يصدف مرور سمكة قراقوز كل يوم في هذه البحار. اترك الأمر لي: سأقليكَ في المقلاة بصحبة الأسماك الأخرى كلها، وستكون راضياً. أن تُقلى بصحبة الآخرين، هو عزاء وسلوى دائماً.

بينوكيو التعس، بعد هذه الترنيمة، بدأ يبكي ويصرخ ويوصي بنفسه، وكان يقول باكياً:

- كان أفضل ألف مرّة لو ذهبتُ إلى المدرسة! ... أردتُ أن أصغيَ إلى رفاقي، وها أنا الآن أدفع الثمن! إيه! ... إيه! ... إيه! ...

ولأنه كان يتملّص مثل سمكة أَنْقَلَيْس، ويقوم بجهود جبّارة لكي يفلت من براثن الصّيّاد الأخضر، تناول هذا الأخير حزمة كبيرة من قشور الخيزران، وبعد أن ربطه من يَدَيْه وقَدَمَيْه مثل القديد، ألقى به في قعر المِصْوَل سويّة مع الآخرين.

بعد ذلك، أخرج خُوَاناً قديماً من الخشب، مليئاً بالطحين، وبدأ يُمرِّغ السمكات به، وحالما كان ينتهي من تمريغها، كان يُلقي بها في المقلاة.

السمكات الأولى التي بدأت تتراقص في الزيت المغليّ، كانت سمكات

(أبو ذقن) المسكينة: بعد ذلك حان دور ضفادع البحر، ثمّ أسماك البوري، أسماك موسى والسردين، وأخيراً حلّ دور بينوكيو. هذا الأخير، عندما رأى الموت قريباً جدّاً منه (وأيّ موت!)، انتابته نوبة من القشعريرة والخوف، حيث لم يعد يملك لا صوتاً ولا نَفَسَاً يستغيث به.

الولد المسكين كان يستغيث بعينَيْه! ولكن الصيّاد الأخضر، حتّى دون أن يكترث له، مرَّغَهُ جيّداً خمس أو ستّ مرّات في الطحين لغاية ما بدا وكأنه دمية من الجصّ.

ثمّ أمسكه من رأسه و....

* * *

XXIX

بينوكيو يعود إلى بيت الحورية، التي تَعِدُه أنه في اليوم التالي سوف لن يبقى دمية، ولكنه سيتحوّل إلى ولد. فطور رائع بالقهوة والحليب للاحتفال بهذا الحَدَث الكبير.

بينما كان الصّيّاد على وشك إلقاء بينوكيو في المقلاة، دَخَلَ إلى الكهف كلب ضخم مقتفياً الرائحة الحادّة للزيت والسمك المقليّ.

- انصرفْ من هنا! – صاح به الصيّاد متوعّداً وهو لا يزال يمسك بيده بينوكيو الممرّغ بالطحين.

ولكن الكلب المسكين كان يشعر بجوع شديد، وكان يبدو وكأنه يقول وهو يجعر ويهزّ ذَنَبه: "أعطني لقمة من السمك المقليّ، وسأتركَكَ بسلام".

- انصرفْ من هنا، أقول لكَ! – كرّر له الصّيّاد، ورَفَعَ قَدَمَهُ، ليركلَه.

عندئذ، الكلب الذي عندما يكون جائعاً بحقّ، لا يترك ذبابة تحطّ على أنفه، التفت وهو يجعر نحو الصيّاد، مُظهِراً أنيابه الرهيبة.

في تلك اللحظة، سُمع صوت واهن في الكهف، حيث قال:

- أنقذني، يا أليدورو! ... إذا لم تُنقذْني، فسأنتهي مَقليّاً!

الكلب تعرّف فوراً على صوت بينوكيو، ولاحظ بدهشة كبيرة أن الصوت كان قد صَدَرَ من تلك الصّرّة المُمرَّغة بالطحين التي يحملها الصّيّاد بيده.

وماذا فعل برأيكم؟ قام بقفزة كبيرة، انتزع الصّرّة الممرَّغة بالطحين من يد الصّيّاد، وخَرَجَ راكضاً من الكهف، يُسابق الريح!

الصيّاد، الذي كان غاضباً جدّاً لأنه فَقَدَ سمكة، كان يريد أن يلتهمَها بغبطة، حاول اللحاق بالكلب، ولكنْ، بعد عدّة خطوات، انتابتْه موجة من السعال، واضطرّ للرجوع إلى الكهف.

في هذه الأثناء، بعد أن وَجَدَ أليدورو الدّربَ الذي يؤدّي إلى البلدة، توقّف، ووَضَعَ صديقه بينوكيو بتؤدة على الأرض.

- لا أعرف كيف أشكرُكَ! - قال بينوكيو.

- لا داعي للشُّكر، - ردّ الكلب. - أنتَ أنقذتَني، وأنا رددتُ لكَ معروفكَ. كما نعرف، الإيثار لا يذهب هباء.

- ولكنْ، أيّة صدفة بعثت بكَ إلى ذلك الكهف؟

- كنتُ لا أزال مستلقياً هنا على الشاطئ، ميّتاً أكثر ممّا أنا حيّ، عندما حملت لي الريح من بعيد رائحة السمك المقليّ. تلك الرائحة حرّكت الشّهية في نفسي، وأنا تبعتُها. لو كنتُ وصلتُ متأخّراً دقيقة واحدة! ...

- لا تُذكّرني بذلك! - صَرَخَ بينوكيو الذي كان لا يزال يرتعد من الخوف. - لا تُذكّرني بذلك! لو أنكَ وصلتَ بعد دقيقة، لكنتُ في هذه الساعة مقلياً وجاهزاً للأكل. برررر! ... تنتابُني القشعريرة لمجرّد التفكير بذلك! ...

مَدّ أليدورو، وهو يضحك، رجلَه اليمنى إلى بينوكيو، الذي شدَّها بقوّة كَعُرْبُوْن لصداقة وطيدة، وافترقا بعد ذلك.

الكلب سَلَكَ الطريق المؤدّية إلى البيت، وبينوكيو، الذي بقي وحيداً، اتّجه نحو كوخ، يقع على مسافة قريبة، وقال لعجوز كان يتدفّأ بأشعّة الشمس أمام الباب:

- قلْ لي، أيّها الرجل الشهم، هل تعرفون شيئاً عن ولد يُدعى يوجينيو كان قد أُصيب بجرح في رأسه هذا الصباح؟ ...

- لقد تمّ نَقْله من قِبَل بعض الصّيّادين إلى ذلك الكوخ، والآن ...

- والآن ربّما قضى نحبه! ... - قاطعه بينوكيو بألم كبير.

- كلا: الآن هو حيّ، وقد رجع إلى بيته.

- أحقّاً؟ ... أحقّاً؟ - صَرَخَ بينوكيو وهو يقفز من الغبطة. - إذنْ، الجرح لم يكن خطراً؟

- كان يمكن أن يكون خطيراً ومُميتاً أيضاً، -أجاب الرجل العجوز، -لأنهم أصابوه في رأسه بكتاب ذي غلاف من الكرتون.

- ومَنْ قَذَفَهُ بالكتاب؟

- أحد زملائه في المدرسة، يُدعى بينوكيو ...

- ومَنْ هو بينوكيو هذا؟ -سأل بينوكيو متصنّعاً السذاجة.

- يقولون إنه ولدٌ سيّئ ومتسكّعٌ، مشاغبٌ حقيقيٌ ...

- بُهتان! بُهتان!

- هل تعرفه أنتَ؟

- أعرفه بالاسم! – أجاب بينوكيو.

- وأنتَ، أيّة فكرة تملك عنه؟ - سأله الرجل العجوز.

- بالنسبة لي، يبدو ولداً طيّباً، مليئاً بالرغبة في الدراسة، مطيعاً، متعلّقاً بأبيه وبعائلته ...

بينما كان بينوكيو يسرد بلا حياء هذه الأكاذيب كلها، لمس أنفه، وانتبه بأنه كان قد ازداد طولاً أكثر من شبر. عندئذ، تملّكه الهلع، وبدأ يصرخ:

- لا تصغوا إلى الخصال الحميدة كلها التي رويتُها لكم، يا أيّها الرجل الكريم، لأنني أعرف بينوكيو جيّداً، وأستطيع أن أؤكّد لكم أنا أيضاً أنه ولد شرّير، متمرّد وبليد، وبدلاً من أن يرتادَ المدرسة، يذهب بصحبة رفاقه للّهو!

حالما انتهى من نطق هذه الكلمات، بدا أنفه يتقلّص، وعاد إلى وَضْعه الطبيعي، كما كان من قبل.

- ولماذا أنت مُمرَّغ هكذا بالأبيض؟ - سأله بغتة الرجل العجوز.

- سأشرح لكم السبب ... دون أن أحتاطَ، لمستُ جداراً كان مَطلياً لتوّه بالدهان، -أجاب بينوكيو، خجلاً من أن يعترف أنهم مرَّغوه بالطحين مثل سمكة، ليقلوه فيما بعد في المقلاة.

- وماذا حلّ بسترتكَ، وبجواربكَ، وبقبّعتكَ؟

- لقد صادفتُ بعض اللصوص، وسلبوني إيّاهم. أخبرْني، أيّها العجوز الطّيّب، ألا تملك بعض الأسمال، لتعطيني إيّاها، بما يكفيني للعودة إلى البيت؟

- يا بني، أنا لا أملك من الثياب سوى كيس، حيث أحتفظ فيه باللوبياء. إذا كنتَ تريده، فخُذْهُ، إنه هناك.

وبينوكيو لم يدعه يكرِّر كلامه مرَّتَيْن: أخذ كيس اللوبياء الفارغ حالاً، وبعد أن صنع بالمقصّ فجوة صغيرة في القعر وفجوَتَيْن على الجانبَيْن، لبسه كقميص، ثمّ انطلق نحو البلدة بذلك الزّيّ الغريب.

ولكنْ، في أثناء الطريق، كان يشعر بتردّد كبير، لدرجة أنه كان يخطو خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف، وكان يقول محدِّثاً نفسه:

- كيف سأقابل الحورية الطيّبة؟ ماذا ستقول لي عندما ستراني؟ ... هل ستسامحني مرّة أخرى من أجل طيشي هذا؟ ... أراهن بأنها سوف لن تصفحَ عنّي! ... آه! سوف لن تصفح عنّي حتماً ... وأنا أستحقّ ذلك: لأنني ولد شقيّ، حيث أَعِدُ دائماً أن أُصلحَ نفسي، ولا أصون كلمتي أبداً ...

عندما وَصَلَ إلى البيت، كان الظلام الحالك قد خيّم على المكان، ولأن الجوّ كان عاصفاً والمطر يهطل بغزارة، ذَهَبَ مباشرة إلى بيت الحورية وهو عازم على طَرْق البيت، لكي يدخل.

ولكنْ، عندما وَصَلَ إلى هناك، شَعَرَ أن الشجاعة تنقصه، وبدلاً من أن يطرق الباب، ابتعد عنه راكضاً حوالي عشرين خطوة. اقترب مرّة ثانية من الباب، ولم يصل إلى نتيجة. اقترب مرّة ثالثة، ولا شيء. في المرّة الرابعة، أمسك المطرقة الحديدية بيده وهو يرتعش، وطرق طرقة خفيفة.

انتظر، انتظر، أخيراً، بعد نصف ساعة، انفتحت نافذة في الطابق الأخير (البيت كان مؤلّفاً من أربعة طوابق) وأطلّ منها حَلَزُوْن ضخم، يحمل على رأسه شمعة مُتّقدة.

- مَن الطارق في هذه الساعة؟ - سأل الحَلَزُوْن.

- هل الحورية في البيت؟ - سأل بينوكيو.

- الحورية نائمة، ولا تريد أن يوقظها أحد: ولكنْ، مَنْ أنتَ؟

- أنا!

- أنا؟ مَنْ تكون أنتَ؟

- بينوكيو.

- أيّ بينوكيو؟

- تلك الدمية التي تقطن في البيت مع الحورية.

- آه! لقد فهمتُ، - قال الحَلَزُوْن. – انتظرني، سوف أنزل حالاً، لأفتحَ لكَ الباب.

- أسرعْ، بحقّ السّماء، لأنني أكاد أموت من البرد.

- يا بني، أنا حَلَزُوْن، والحَلَزُوْنات ليست في عجلة من أمرها أبداً.

في هذه الأثناء، كانت قد انقضت ساعة من الوقت، ثمّ ساعَتَان، والباب لا ينفتح: كان بينوكيو يرتجف من البرد، من الخوف، ومن المطر الذي ينهمر عليه، لذا حزم أمره، وطَرَقَ الباب مرّة أخرى بقوّة أكثر من قبل. بعد ذلك، انفتحت نافذة في الطابق السفلي، وأطلّ منها الحَلَزُوْن نفسه.

- أيّها الحَلَزُوْن الطيّب، - صَرَخَ بينوكيو من الشارع، - لقد انقضت ساعَتَان من الوقت وأنا أنتظر! وساعَتَان، في هذا الطقس السيّئ، هما أطول من سنتَيْن. أسرعْ، بحقّ السّماء.

- يا بنيّ – أجابه من النافذة ذلك المخلوق المليء بالوداعة والخمول،
- يا بنيّ، أنا حَلَزُوْن، والحَلَزُوْنات ليست في عجلة من أمرها أبداً.

ثمّ أغلق النافذة.

بعد قليل، أعلنت دقّات السّاعة منتصف الليل: ثمّ الواحدة، ثمّ الثانية بعد منتصف الليل، والباب كان لا يزال مُوصَداً.

عندئذ، فَقَدَ بينوكيو صبره، فَرَكَلَ البابَ ركلة قوية جدّاً، لدرجة تردّد صداها في كلّ الحيّ: ولكن مطرقة الباب التي كانت مصنوعة من الحديد، تحوّلت إلى سمكة أَنْقَلَيْس حيّة، وبعد أن تملّصتْ من يده، اختفتْ في سيل الماء الجاري في وسط الشارع.

- إذنْ، هكذا؟ - صَرَخَ بينوكيو وهو يَزْبِدُ من الغضب. – إذا اختفت المطرقة، أنا سأتابع الطَّرْق بالركلات. وبعد أن تراجع قليلاً، أودع ضربة قوية على باب البيت، فولجت قَدَمُهُ في الخشب حتّى المنتصف: وعبثاً حاول انتزاعها، لأن قَدَمَه كانت قد انغرست فيه، مثل مسمار مبرشم.

تصوّروا حال بينوكيو المسكين! فلقد اضطرّ لقضاء بقية الليل بقَدَم على الأرض وأخرى في الهواء.

في الصباح، بحلول النهار، أخيراً فُتِحَ الباب.

الحَلَزُوْن، ذلك المخلوق الوديع، لكي ينزل من الطابق الرابع لغاية مدخل البيت، استغرق تسع ساعات فقط. يجب الاعتراف أنه بذل جهداً كبيراً!

- ماذا تفعلون مع هذه القَدَم المغروسة في الباب؟ - سأل الحَلَزُوْن بسخرية.

- كان مجرّد حادث. انظرْ، أيّها الحَلَزُوْن الطّيّب، فيما إذا كنتَ تستطيع أن تُحرِّرني من هذا العذاب.

- يا بنيّ، هنا الأمر يتطلّب نجّاراً، وأنا لم أمارسْ هذه المهنة أبداً.

- توسَّلْ إلى الحورية من طَرَفي! ...

- الحورية نائمة، ولا تريد أن يزعجَها أحد.

- ولكنْ، ماذا تريدني أن أفعلَ، وأنا مُسَمّرٌ النهار كله على هذا الباب؟

- تَسَلَّ بِعَدّ النمل الذي يمرّ من الشارع.

- اجلبْ لي، على الأقلّ، بعض الطعام، لأنه يكاد يُغمى عليّ من الجوع.

- حالاً! – قال الحَلَزُوْن.

في الواقع، بعد ثلاث ساعات ونصف، رأى بينوكيو الحَلَزُوْن يعود وهو يحمل على رأسه خُواناً من الفضّة. كان الخُوان يحتوي على خبز، دجاجة مَشوية وأربع حبّات من المشمش الناضج.

- ها هو طعام الفطور الذي أرسلتْه لكَ الحورية، - قال الحَلَزُوْن.

برؤية تلك الخيرات، نسي بينوكيو ما قاساه كلّه.

ولكنْ، كم كان إحباطه كبيراً، عندما ابتدأ يأكل، حيث انتبه أن الخبز كان من الجصّ، الدجاجة من الورق، وحبّات المشمش الأربع من المرمر الملوّن بالألوان الطبيعية.

كان يريد البكاء، كان يريد أن يتركَ نفسه فريسة لليأس، كان يريد أن يرميَ الخُوان بكل ما فيه: ولكنْ، عوضاً عن ذلك، أو ربّما بسبب الألم الكبير والوَهَن الذي أصاب معدته، سَقَطَ مَغمياً عليه.

عندما عاد إلى رشده، وَجَدَ نفسه ممدّداً على أريكة، والحورية كانت تجلس بجانبه.

- سأصفح عنكَ هذه المرّة أيضاً، – قالت له الحورية، - ولكنْ، إيّاكَ أن تقوم مرّة ثانية بهذه الشقاوات! ...

بينوكيو وَعَدَ، وأقسم بأنه سيدرس، وأن سلوكه سيكون دائماً قويماً. وصانَ وعدَه لبقية العام كله. وبالفعل، ففي امتحانات منتصف العام، حصل على مرتبة أفضل تلميذ في المدرسة، وسلوكه، بشكل عامّ، كان قد عُدّ جيّداً ومُقنعاً، لدرجة أن الحورية، التي كانت مسرورة جدّاً، قالت له:

- ستتحقّق رغبتكَ أخيراً يوم غد.

- ماذا تعنين بذلك؟

- غداً ستنتهي من أن تكون دمية من الخشب، وستتحوّل إلى ولد مهذّب.

مَنْ لم يرَ بهجة بينوكيو أمام هذه الخبر الذي انتظره طويلاً، لا يمكنه أبداً تصوُّرها. رفاقه وزملاؤه كلهم في المدرسة كان يجب دعوتهم في اليوم التالي إلى مأدبة فطور عامرة في بيت الحورية، لكي يحتفلوا معاً بالحَدَث الكبير: والحورية أمرت بتحضير مائتي فنجان من القهوة بالحليب، وأربعمائة شطيرة مدهونة بالزبدة من الأسفل ومن الأعلى. ذلك اليوم كان يشي بأنه سيكون جميلاً جدّاً، وفي منتهى المرح، ولكنْ ...

للأسف، في حياة الدمى توجد دائماً كلمة ولكنْ، حيث تُفسد كلَّ شيء.

* * *

XXX

بينوكيو، عوضاً من أن يتحوّل إلى ولد، يسافر خلسة مع صديقه لوتشينيولو إلى " بلد اللهو والمرح"

كما هو طبيعي، بينوكيو طَلَبَ فوراً من الحورية الإذنَ في أن يقوم بجولة في المدينة، ليدعوَ رفاقه إلى الحفلة، والحورية قالت له:

- اذهبْ، وادعُ أصدقاءَكَ إلى طعام الفطور يوم غد، ولكنْ، تذكّر أن تعود إلى البيت قبل حلول الظلام. هل فهمتَ؟

- أعدكِ بأنني سوف أعود خلال ساعة من الوقت، - ردّ بينوكيو.

- انتبهْ، يا بينوكيو، الأولاد يتسرّعون في الوعود، ولكنْ، في أغلب الأحيان، لا يفون بوعودهم إلاّ بعد فوات الأوان.

- ولكنْ، أنا لستُ مثل الآخرين: أنا، عندما أقول شيئاً ما، أصونه.

- فلنرَ. إذا لم تلتزم فيما بعد، فهذا شأنكَ.

- لماذا؟

- لأن الأولاد الذين لا يأبهون إلى نصائح مَنْ هم أكثر خبرة منهم، يجدون أنفسهم دائماً في ورطة ما.

- وأنا جرَّبْتُ ذلك! - قال بينوكيو. - ولكنْ، سوف لن أعيدَ الكرّة ثانية بعد الآن!

- سنرى فيما إذا كنتَ تقول الحقيقة.

دون أن يضيف شيئاً آخراً، ودّع بينوكيو الحورية الطيّبة، التي كانت بمثابة أمّ له، وخَرَجَ من باب البيت وهو يُغنّي ويرقص.

خلال ساعة ونيّف تقريباً، نقل الدعوة إلى أصدقائه كلهم. بعضهم قبل الدعوة فوراً، وبكل سرور: والبعض الآخر، منذ البداية، تمنّعوا قليلاً، ولكنْ، عندما علموا أن الشطائر التي ستُغْمَسُ في القهوة بالحليب، ستُدْهنُ بالزبدة من الخارج أيضاً، انتهوا جميعاً إلى القول: «سنأتي نحن أيضاً، لكي تكون راضياً».

الآن يجب أن نعرف أن بينوكيو، من بين أصدقائه ورفاقه من التلاميذ، كان يملك صديقاً حميماً وعزيزاً على نفسه، وكان يُدعى روميو: ولكن الجميع كانوا يدعونه بلقب لوتشينيولو، بسبب جسده الذابل، الهزيل والأعجف، تماماً مثل الفتيل الجديد لقنديل الليل.

لوتشينيولو كان الولد الأكثر خمولاً وصفاقة بين أولاد المدرسة كلهم، ولكن بينوكيو كان يودّه كثيراً. وفي الواقع، ذَهَبَ فوراً، ليبحث عنه في البيت، لكي يدعوه إلى طعام الفطور، ولم يجدْه. رجع مرّة ثانية، ولوتشينيولو لم يكن موجوداً: رجع للمرّة الثالثة، وذَهَبَ تعبه هباء.

أين يمكن العثور عليه؟ بَحَثَ من هنا، بَحَثَ من هناك، وأخيراً وَجَدَه مختبئاً تحت رواق أحد بيوت الفلاحين.

- ماذا تفعل هنا؟ - سأله بينوكيو وهو يقترب منه.

- أنتظر منتصف الليل، لكي أسافرَ ...

- إلى أين تريد السَّفَر؟

- بعيداً، بعيداً، بعيداً!

- لقد ذهبتُ إلى بيتكَ ثلاث مرّات بحثاً عنكَ! ...

- وماذا كنتَ تريد منّي؟

- ألا تعلم الحَدَثَ الكبير؟ ألا تدري بأن الحظَّ قد وافاني؟

- أيّ حظّ؟

- غداً سيكون آخر يوم لي كدمية، سأتحوّل إلى ولد مثلكَ، مثل الآخرين كلهم.

- أتمنّى لكَ حظّاً سعيداً.

- إذنْ، سأنتظركَ غداً على طعام الفطور في بيتي.

- ولكنْ، لقد أخبرتُكَ لتوّي أنني سأسافر هذا المساء.

- في أيّ ساعة؟

- بعد قليل.

- وأين ستذهب؟

- سأذهب لأعيش في بلد ... من أجمل بلدان هذا العالم: بلاد لهو حقيقي! ...

- وكيف يُدعى هذا البلد؟

- يدعى «بلد اللهو والمرح». لماذا لا تأتي أنت أيضاً؟

- أنا؟ بالتأكيد لا.

- أنتَ مخطئ، يا بينوكيو! صدِّقني، إذا لم تأتِ، سوف تندم. أين ستجد بلداً أكثر ملاءمة بالنسبة لنا نحن الأولاد؟ فهنالك لا توجد مدارس، ولا يوجد معلّمون، ولا توجد كُتُب. في ذلك البلد الرائع، لا توجد دراسة البتّة. فالمدارس مغلَقة يوم الخميس، وكل أسبوع مؤلّف من ستّة أيّام خميس، ويوم أحد. تصوَّر أن عطلة الخريف تبدأ في مطلع كانون الثاني (يناير)، وتنتهي في آخر يوم من كانون الأوّل (ديسمبر). ها هو بلد كما يروق ليّ تماماً! هذا ما يجب أن تكون عليه البلدان المتحضّرة كلّها! ...

- ولكنْ، كيف يقضي المرء أيّامه في «بلد اللهو والمرح»؟

- يقضيها في اللعب واللهو من الصباح حتّى المساء. ثمّ في المساء، يذهب إلى السرير، وفي صباح اليوم التالي يبدأ من جديد. ما رأيكَ؟

- احم! ... - فكّر بينوكيو، وهزّ رأسه قليلاً، كما لو أنه يقول: "إنها حياة، أودّ أن أقوم بها أنا أيضاً، وبكل سرور!".

- إذنْ، هل تريد أن تسافرَ معي؟ نعم أو لا؟ قرِّرْ.

- كلا، كلا، كلا، ثمّ كلا. لقد وعدتُ حوريّتي الطيّبة أن أكون ولداً مهذّباً، وأريد أن أصونَ وعدي. بل، بما أنني أرى الشمس في طريقها إلى المغيب، أنا مضطرّ لأن أتركَكَ حالاً، وأسرع في العودة إلى البيت. إذنْ، وداعاً، أتمنّى لكَ رحلة ممتعة.

- ما بالكَ تهرب بهذا الاندفاع؟

- حوريّتي الطّيّبة طَلَبَت منّي أن أعود قبل حلول الظلام.

- انتظر دقيقَتَيْن أخريَيْن.

- سأتأخّر كثيراً.

- دقيقَتَيْن فقط.

- وإذا وبَّختْني الحورية؟

- دعْها توبّخكَ. بعد أن تصرخ بقدر ما تشاء، سوف تهدأ، - قال ذلك الوغد لوتشينيولو.

- وما هي خطّتكَ؟ هل ستسافر بمفردكَ؟ أم بصحبة أناس آخرين؟

- بمفردي؟! إن عددَنا سيكون أكثر من مئة ولد.

- وستقومون بالرحلة مَشياً على الأقدام؟

- عند منتصف الليل، ستمرّ من هنا عربة، حيث يجب أن تقلّنا وتقودنا إلى داخل حدود ذلك البلد المحظوظ جدّاً.

- ماذا ستكون عليه الأجرة في تلك الساعة من الليل؟

- لماذا؟

- لأنني أراكم تسافرون جميعاً معاً.

- اِبْقَ هنا لبعض الوقت أيضاً، وسوف تعرف كل شيء.

- كلا، كلا: أريد العودة إلى البيت.

- انتظر دقيقَتَيْن أخريَيْن.

- لقد تمهّلتُ بما فيه الكفاية، الحورية ستقلق من أجلي.

- يا للحورية المسكينة! ربمّا تخشى عليكَ من الخفافيش؟

- ولكنْ، قل ليّ الحقيقة، -أضاف بينوكيو، - هل أنتَ متأكّد تماماً بأنه لا توجد مدارس في ذلك البلد؟

- لا يوجد حتّى ظلّها.

- ولا أساتذة؟

- حتّى واحد منهم.

- ولا أحد يُرغمكَ على الدراسة؟

- أبداً، أبداً، أبداً!

- يا له من بلد جميل! – قال بينوكيو، وهو يُحسّ بلعابه يسيل من فمه.
– يا له من بلد جميل! أنا لم أزرْه قطّ، ولكنْ، هل يمكنكَ أن تصفَهُ لي؟

- لماذا لا تأتي أنتَ أيضاً؟

- لا فائدة من المحاولة! لقد وعدتُ حوريّتي الطّيّبة أن أتحوّل إلى ولد عاقل، ولا أريد أن أخلفَ بوعدي.

- إذنْ، وداعاً، وبلّغْ تحياتي الكثيرة إلى المدرسة الإعدادية! ... وإلى الثانوية أيضاً، إذا ما التقيتَ بهما في الطريق.

- وداعاً، يا لوتشينيولو، تمتّعْ، وتذكّرْ أصدقاءَكَ بين فترة وأخرى.

بعد أن قال ذلك، خطا بينوكيو خطوَتَيْن نحو طريق العودة: ولكنْ، فيما بعد، توقّف واستدار نحو صديقه، ثمّ سأله:

- ولكنْ، هل أنتَ متأكّد تماماً من أن الأسابيع كلّها مؤلّفة من يوم أحد وستّة أيّام خميس؟

- أنا متأكّد تماماً.

- وأنتَ متأكّد تماماً أن العطل تبدأ من بداية شهر كانون الثاني (يناير)، وتنتهي في نهاية كانون الأوّل (ديسمبر)؟

- أنا متأكّد تماماً.

- يا له من بلد جميل! – كرّر بينوكيو وهو يكاد يطير من الفرح.

بعد ذلك، عاقداً العزم، قال بسرعة مَشوبة بالتّهوّر:

- إذنْ، وداعاً حقّاً، ورحلة ممتعة.

- وداعاً.

- متى ستسافرون؟

- خلال ساعَتَيْن!

- يا للأسف! لو كان قد تبقّى ساعة للسَّفَر، لكان في مقدوري تقريباً أن أنتظرَ.

- والحورية؟ ...

- لقد تأخّرتُ، وكفى! ... وإذا عدتُ إلى البيت قبل ساعة أو بعد ساعة، فالأمر سيان.

- يا لبينوكيو المسكين! وإذا وبّختْكَ الحورية؟

- لا بأس! سأدعها توبّخني. وبعدما تشبع من الصراخ، ستهدأ.

في هذه الأثناء، كان قد حلّ المساء، مساء مظلم، عندما لمحا فجأة بريق ضوء يتحرّك من بعيد ... وسمعا جلجلة أجراس، ونفير بوق خافتاً ومبحوحاً، حيث كان يبدو وكأنه أزيز بعوضة!

- ها هي! – صَرَخَ لوتشينيولو وهو يقفز ناهضاً.

- مَنْ؟ - سأل بينوكيو بصوت هامس.

- إنها العربة التي ستقلّني. إذنْ، هل تريد أن تأتيَ، نعم أو لا؟

- أحقّاً لا أحد يُرغم الأولاد على الدراسة في ذلك البلد؟ - سأل بينوكيو.

- أبداً! ... أبداً! ... أبداً!

- يا له من بلد جميل! ... يا له من بلد جميل! يا له من بلد جميل! ...

* * *

XXXI

بعد خمسة أشهر من اللهو، بينوكيو، بدهشة منقطعة النظير، يُحسّ أنه قد بدأت تنمو له أذنان طويلتان ويتحوّل إلى حمار، بذَيْلٍ وكلّ شيء.

أخيراً وَصَلَت العربة: ووَصَلَت دون أن تُحدِث أدنى ضجّة، لأن عجلاتها كانت مُغلَّفة بنسالة الكتّان ومِزَق من الأسمالِ البالية.

كان يجرّها اثنا عشر زوجاً من الحمير، جميعهم بالحجم نفسه، مع فارق في ألوان وبَرِهِم.

بعضهم كان ذا لون رمادي باهت، آخرون ذوو لون أبيض، وآخرون بوَبَرٍ، وَخَطَهُ الشيب مثل خليط من الملح والفلفل الأسود، وآخرون مُقلّمون بخطوط عريضة صفراء وزرقاء. ولكن أغرب شيء كان هذا: أن تلك الأزواج الاثنَي عشر، أو بالأحرى الأربع وعشرين حماراً، بدلاً من أن تكون حوافرها تحمل نعالاً من الحديد مثل الحيوانات المخصّصة للأحمال وللجَرّ، كانت تلبس صنادل من جِلْد البقر مثل تلك التي يرتديها البشر.

والحوذيّ الذي يقود العربة؟ ...

تصوّروا رجلاً قزماً، عرضه أكثر من طوله، رؤوم وأمرد مثل كتلة من السّمن، بوجه متورّد، وثغر متبسّم دائماً، وصوت ناعم مثل صوت هرّة، تتملّق قلب صاحبها الطّيّب.

الأولاد كلهم، حالما يرونه، كانوا يولهون به، ويتبارزون في امتطاء عربته، لكي يقودهم إلى ذلك المكان، حيث اللهو الحقيقي والمعروف على الخارطة الجغرافية، باسم "بلد اللهو والمرح".

في الواقع، كانت العربة مليئة سابقاً بأولاد تتراوح أعمارهم ما بين ثمانية واثنَي عشر عاماً، مكدَّسين الواحد فوق الآخر، مثلما تُكدَّس أسماك الأنشوفة في الماء المالح. كانوا يشعرون بالضيق، ويتنفّسون بصعوبة تقريباً: ولكنْ، لا أحد منهم كان يشكو أو يتذمّر. العزاء بأنهم كانوا سيصلون خلال بضع ساعات إلى ذلك البلد، حيث لا توجد كُتُب، ولا مدارس، ولا أساتذة، كان يجعلهم مسرورين ومستكينين، ولا يشعرون بالمضايقات، ولا بسوء المعاملة، ولا بالجوع، ولا بالعطش، ولا بالنوم.

حالما توقّفت العربة، التفتَ الرجل القزم بتودّد نحو لوتشينيولو، وسأله مبتسماً:

- قل لي، أيّها الولد اللطيف، هل تريد أن تأتيَ أنتَ أيضاً إلى ذلك البلد السعيد الحظّ؟

- طبعاً أريد أن آتيَ.

- ولكنْ، أُحذّركَ، يا عزيزي أنه لم يعد يوجد مكان شاغر في العربة. كما ترى، الأماكن كلها مشغولة! ...

- لا بأس! – ردّ لوتشينيولو، - إذا لا يوجد مكان في الداخل، سأتدبّر أمري على مشارب العربة.

وبقفزة واحدة، جلس منفرج الساقَيْن على المشارب.

- وأنتَ، يا عزيزي؟ ...- قال الرجل القزم مجاملاً بينوكيو. – ماذا تنوي أن تفعل؟ أتأتي معنا؟ أم ستبقى هنا؟ ...

- أنا سأبقى هنا، -أجاب بينوكيو. – أنا أريد العودة إلى بيتي: أريد أن أدرسَ وأتفوّقَ في المدرسة، كما يفعل الأولاد المجدُّون كلهم.

- أتمنّى لكَ النجاح!

- بينوكيو! – قال حينئذ لوتشينيولو. – أصغِ إليّ: تعال معنا، وسنكون سعداء.

- كلا، كلا، كلا!

- تعال معنا، وسنكون سعداء، -ارتفعت أربعة أصوات أخرى من داخل العربة.

- تعال معنا، وسنكون سعداء، - صَرَخَت مئات من الأصوات معاً من داخل العربة.

- وإذا أتيتُ معكم، ماذا ستقول حوريّتي الطيّبة؟ -قال بينوكيو الذي كان قد بدأ يلين و.....

- انزعْ عن رأسكَ هذه الهموم. فكِّرْ أننا ذاهبون إلى بلد حيث، سنكون أسياداً في أن نشاغبَ من الصباح حتّى المساء!

بينوكيو لم يجبْ، ولكنه تنهّد. ثمّ تنهّد مرّة ثانية، ثمّ مرّة ثالثة، وأخيراً قال:

- أفسحوا لي مكاناً: أريد أن آتي أنا أيضاً! ...

- الأماكن كلها مشغولة، - ردّ الرجل القزم، - ولكنْ، لكي أثبتَ لكَ مدى ترحيبنا بكَ، يمكنني أن أتركَ لكَ مكاني على الصندوق ...

- وأنتَ؟ ...

- أنا سأتابع الطريق مشياً على الأقدام.

- كلا، أنا لا أقبل بذلك، أفضّل أن أمتطيَ ظهر أحد هذه الحمير! - صَرَخَ بينوكيو.

وبالفعل، اقترب من حمار واطئ في الصّفّ الأوّل، وهَمّ بامتطائه، ولكن الحيوان، ملتفتاً بحدّة، نَطَحَه برأسه نَطْحة قوية على معدته، ألقت به على الأرض ورجلَيْه في الهواء.

تصوّروا الضحكات الوقحة والمسعورة لكل أولئك الأولاد الذين حضروا المشهد.

ولكن الرجل القزم لم يضحك. اقترب بحنوّ كبير من الحمار المتمرّد، ومتصنّعاً تقبيله، قَضَمَ نصف أذنه اليمنى.

في هذه الأثناء، بعد أن نَهَضَ بينوكيو غاضباً عن الأرض، امتطى بوثبة خاطفة ظهر ذلك الحيوان المسكين. والوثبة كانت جميلة، لدرجة أن الأولاد توقّفوا على إثرها من الضحك، وبدؤوا يصيحون: "يعيش بينوكيو!" ويصفّقون معاً بشكل متواصل.

وهنا رَفَعَ الحمار فجأة رجلَيْه الخلفيَّتَيْن، وبهزّة قوية جدّاً من مؤخّرته، قذف بينوكيو المسكين إلى منتصف الطريق فوق كومة من الحصى.

وانفجر الأولاد مجدّداً في الضحك: ولكن الرجل القزم، بدلاً من أن يضحك، شَعَرَ بأنه مأخوذ من حبّ جارف تجاه هياج ذلك الحمار الصغير، فاقترب منه، وقَضَمَ نصف أذنه الأخرى، ثمّ قال موجّهاً كلامه إلى بينوكيو:

- امتطِه ثانية، ولا تخفْ. ذلك الحمار كان قد ركبه العناد بعض الشيء، ولكنْ، أنا همستُ كلمَتَيْنْ في أذنه، وآمل أنني جعلتُهُ وديعاً وعاقلاً.

بينوكيو امتطاه، والعربة بدأت تتحرّك. ولكنْ، في أثناء عدو الحمير والعربة تجري على بلاط الطريق الرئيسة، بدا لبينوكيو سماع صوت متقطّع ومفهوم بالكاد، حيث كان يقول له:

- يا للولد المسكين، لقد شئتَ أن تركبَ رأسكَ، ولكنكَ ستندم!

نَظَرَ بينوكيو يمنة ويسرى بعَيْنَيْنْ هلعَتَيْنْ، لكي يقتفي أثر الصوت، ولكنه لم يرَ أحداً. الحمير كانت تعدو بسرعة، والعربة كانت تجري، والأولاد داخل العربة كانوا يغفون. لوتشينيولو كان يشخر مثل الزغبة، والرجل القزم كان جالساً على الصندوق، يغنّي بين أسنانه:

الجميع ينامون في الليل

وأنا لا أنام أبداً ...

بعد قَطْع مسافة نصف كيلومتر آخر، سمع بينوكيو الصوت الواهن نفسه يقول له:

- احتفظْ جيّداً بهذه الكلمات في رأسكَ، يا أيّها الأحمق الصغير! الأولاد الذين يتوقّفون عن الدراسة، ويديرون ظهورهم للكُتُب، وللمدارس، وللمعلّمين، لكي يكرّسوا جُلّ وقتهم للّهو واللّعب، لا يمكن إلا أن تكون نهايتهم وخيمة! ... أنا أعرف ذلك بالتجربة! ... ويمكنني أن أؤكّده لكَ!

سيأتي يوم ستبكي فيه أنتَ أيضاً، كما أبكي أنا اليوم ... ولكن الوقت سيكون متأخّراً! ...

أمام هذه الكلمات التي هُمِسَتْ بصوت متقطّع، بينوكيو، الذي كان قد امتلكه الخوف أكثر من أيّ وقت مضى، نزل من ظهر المطية، وذَهَبَ وأمسك حماره من فمه.

وتصوّروا بأيّ حال بقي عندما لاحظ أن حماره كان يبكي ... وكان يبكي مثل الأولاد بالضبط!

- إيه، أيّها السّيّد القزم، - صَرَخَ عندئذ بينوكيو لصاحب العربة، - هل تعرفون ماذا طرأ من جديد؟ هذا الحمار يبكي.

- دعْه يبكي، سيضحك عندما سيتزوّج.

- أخمّن أنكم علّمتُمُوه الكلام أيضاً؟

- كلا، لقد تعلّم بنفسه أن يُغمغمَ بعض الكلمات، لأنه بقي ثلاث سنوات في فرقة للكلاب المُرَوِّضة.

- يا للحيوان المسكين! ...

- هيّا! هيّا! - قال الرجل القزم، - لا نملك وقتاً نُضيّعه لمشاهدة حمار يبكي. امتطِهِ، ولنذهب، الليل بارد، والطريق طويلة.

بينوكيو أطاع الأمر دون أن ينبس بكلمة. العربة عاودت جَرْيها، وفي الصباح، عند الفجر، وَصَلُوا بسلام إلى "بلد اللهو والمرح".

هذا البلد كان لا يشبه أيّ بلد في العالم. قاطنوه كانوا كلهم من

الأولاد، أكبرهم سنّاً كان يملك أربعة عشر عاماً، وأصغرهم سنّاً ثمانية أعوام. كانت الشوارع تضجّ بالمرح، بالجلبة وبصراخ لا يُطاق! قطعان من الأولاد المشاكسين في كل مكان. كان هنالك مَنْ يمارس لعبة الجوز(*)، مَنْ يلعب لعبة البلاط، مَنْ يلعب بالكرة، مَنْ يمتطي الدرّاجة الهوائية، مَنْ يتأرجح على متن حصان خشبي. البعض كان يقوم بدور الذبابة العمياء، آخرون يلاحقون بعضهم البعض، وآخرون، مرتدين لباس المهرّجين، كانوا يلتهمون خِرَقاً مشتعلة بالنار. هنالك مَنْ كان يُمثّل، مَنْ كان يُغنّي، مَنْ كان يقوم بحركات بهلوانية، مَنْ كان يتسلّى بالمشي بيَدَيْه على الأرض ورجلَيْه في الهواء، مَنْ كان يدفع العجلة، مَنْ كان يتمشّى مرتدياً زيّ جنرال بخوذة من القرطاس وجنود من معجون الورق. مَنْ كان يضحك، مَنْ كان يصرخ، مَنْ كان يُصفّق، مَنْ كان يُصفّر، مَنْ كان يُقلّد نقنقة الدجاجة بعد أن تبيض. في الحاصل، ضوضاء وشغب مسعور، لدرجة يجب معها سَدّ الأذنَيْن، لكيلا يفقدَ المرء سَمْعه. كانت تُشاهَد على زوايا الساحات كلها مسارح صغيرة من القماش، تغصّ بأولاد من الصباح حتّى المساء، وعلى جدران البيوت جميعها كانت تُقرَأ جمل مكتوبة بالفحم مثل هذه: ياعيش الهو (بدلاً من يعيش اللهو): لا نوريد مدارساً بعدلان (بدلاً من لا نريد مدارس بعد الآن): ياسقط الحيساب (بدلاً من يسقط الحساب)، وأشياء من هذا القبيل، يندى لها الجبين.

بينوكيو، لوتشينيولو، الأولاد الآخرون كلهم، الذي قاموا بالرحلة مع الرجل القزم، حالما وَضَعُوا أقدامهم داخل المدينة، ألقوا بأنفسهم فوراً في المعمعة، وخلال بضع دقائق، كما يمكن تخيّله بسهولة، أصبحوا أصدقاء الجميع.

---

*) لعبة قديمة جدّاً، تعود جذورها إلى الحقبة الرومانية. حبّات الجوز في هذه اللعبة كانت تُستخدَم عوضاً عن الكرات الزجاجية التي يستخدمها الأطفال في وقتنا الحاضر.

مَنْ أكثر سعادة وأكثر سروراً منهم؟

في وسط الترويح عن النَّفْس والمرح، الساعات والأيّام والأسابيع، كانت تمضي في لمح البصر.

- أوه! يا لها من حياة رائعة! – كان يقول بينوكيو في كل مرّة كان يلتقي بها لوتشينيولو بالصدفة.

- فكِّرْ، إذنْ، فيما إذا كنتُ محقّاً؟ ... – كان يكرِّر هذا الأخير. – وأنتَ كنتَ ترفض المجيء! وتصوَّر أنكَ كنتَ قد عقدتَ العزم للعودة إلى البيت لدى حوريّتكَ، لكي تُضيِّع الوقت في الدراسة! ... إذا كنتَ اليوم قد تحرّرتَ من ضجر الكُتُب والمدارس، فالفضل ليّ، لنصائحي وليقظتي، أليس كذلك؟ الأصدقاء المخلصون فقط، هم وحدهم الذين يُسدون هذه الأفضال العظيمة.

- هذا صحيح، يا لوتشينيولو! إذا كنتُ اليوم ولداً مسروراً بحقّ، فالفضل كله يعود لكَ. بينما المعلّم، هل تعرف ماذا كان يقول ليّ عندما كان يتكلّم عنكَ؟ كان يقول ليّ دائماً: "لا تصاحب ذلك الوغد لوتشينيولو، لأنه رفيق سيّئ، ولا يستطيع أن ينصحكَ سوى بعمل السوء! ...".

- يا للمعلّم المسكين! – ردّ الآخر وهو يهزّ رأسه بخيبة بالغة. – للأسف، أعرف أنه كان ينفر منّي، وكان يلهو في الإساءة إليّ، ولكنْ، أنا سَهمٌ، وأسامحه!

- أنتَ إنسان نبيل، يا لوتشينيولو! – قال بينوكيو وهو يعانق صديقه بحرارة، ويُقبّله من وجنَتَيْه.

في هذه الأثناء، كانت قد انقضت خمسة أشهر وهو منغمس لأيّام

بحالها في اللهو والمرح دون أن يرى كتاباً، ولا مدرسة، ولكنْ، في صباح أحد الأيّام، استيقظ بينوكيو، ليجدَ نفسه وجهاً لوجه أمام مفاجأة سيّئة جدّاً، جعلتْه يقع في كآبة، لا نظير لها.

* * *

XXXII

زوج من أذنَي حمار ينبتان في رأس بينوكيو، وبعد ذلك، يتحوّل إلى حمار حقيقيّ، ويبدأ في النهيق.

وماذا كانت هذه المفاجأة؟

سأرويها لكم أنا، يا أعزّائي القرّاء الصغار: المفاجأة كانت أن بينوكيو، حالما استيقظ من النوم، أحسّ بالحاجة لحَكِّ رأسه، وبينما كان يحكُّ رأسه، لاحظ أنه ...

خمّنوا ماذا لاحظ؟

لاحظ بدهشة كبيرة أن أذنَيْه قد نمَتَا أكثر من شبر.

أنتم تعرفون أن بينوكيو، منذ أن رأى النور، كان يملك أذنَيْن صغيرَتَيْن جدّاً: صغيرَتَيْن لدرجة أنه كان لا يمكن حتّى رؤيتهما بالعين المجرّدة! تصوّروا، إذنْ، بأيّ حال بقي عندما أحسّ بأن أذنَيْه، في أثناء الليل، كانتا قد طالتا بهذا الشكل مثل خصلَتَيْن من نبتة القيصوب(*).

*) القيصوب أو الغاب أو البردي أو البوص جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة النجيلية، ويضمّ أنواعاً عشبية معمّرة، وتُصنع من خصلاته المكانس.

ذَهَبَ فوراً للبحث عن مرآة، لكي يتمكّن من رؤية نفسه. ولكنْ، بما أنه لم يعثر على مرآة، ملأ جرن المغسلة بالماء، وعندئذ رأى ذاك الذي لم يكن يرغب برؤيته أبداً، أي هيأته المزيّنة بزوج رائع من أذنيَ حمار.

أترك لكم تصوُّر ألم وخجل ويأس بينوكيو المسكين!

بدأ يبكي، يصرخ ويضرب رأسه بالحائط. ولكنْ، كلّما كان ييأس أكثر، كلّما كانت أذنَاه تكبران، تكبران، وينمو في ذروَتَيْهما الوَبَرُ.

أمام ذلك الصراخ الحادّ، دَخَلَ إلى الغرفة مَرْمُوْط(*) صغير، الذي كان يعيش في الطابق العلوي. عندما رأى بينوكيو في تلك الحال من اليأس، سأله برقّة:

- ما خطبكَ، يا جاري العزيز؟

- أنا مريض، يا عزيزي المَرْمُوْط، مريض جدّاً ... ومصاب بمرض، يزرع في نفسي الخوف! هل عندكَ خبرة بجَسّ المِعْصَمِ؟

- قليلاً.

- افحصْني، إذنْ، ولنرَ فيما إذا كنتُ مصاباً بالحمّى.

رَفَعَ المَرْمُوْط رجلَه اليمنى إلى الأمام، وبعد أن جَسّ مِعْصَمَ بينوكيو، قال له وهو يتنهّد:

- يا صديقي، يؤسفني أن أنقل لكَ خبراً سيّئاً! ...

- ماذا اكتشفتَ؟

---

*) المَرْمُوْط: هو جنس من الحيوانات، يتبع فصيلة السنجابية من رتبة القوارض. وهو أكبر حيوان في فصيلة السنجابيات. يعيش في الجحور، ويوجد في مناطق كثيرة من نصف الكرة الشّماليَّة.

- اكتشفتُ أنكَ تملكُ حمّى سيّئة! ...

- وأيّة حمّى هذه؟

- إنها حمّى الحمير.

- لم أسمع بهذه الحمّى من قبل! – أجاب بينوكيو، الذي كان للأسف قد فَهِمَ ما يعنيه المَرْمُوْط.

- إذنْ، سأشرحها لكَ أنا، - أضاف المَرْمُوْط – يجب أن تعرف أنه خلال ساعَتَيْن أو ثلاث ساعات، سوف لن تكون بعد الآن دمية، ولا ولداً ...

- وماذا سوف أكون؟

- خلال ساعَتَيْن أو ثلاث ساعات، سوف تتحوّل إلى حمار بكل معنى الكلمة، مثل الذين يجرّون العربة، أو الذين ينقلون القرنبيط والخسّ إلى السوق.

- آه! يا خيبتي! يا خيبتي! – صَرَخَ بينوكيو وهو يمسك بيَدَيْه كلتا أذنَيْه، ويشدّهما، وينتفهما بغضب، كما لو أنهما أذنا شخص آخر.

- يا عزيزي، - ردّ المَرْمُوْط لكي يُعزّيه، - ماذا يمكنكَ أن تفعل؟ إنه القَدَر، وكُتِبَ في سجلات المعرفة، أن أولئك الأولاد البليدين كلهم الذين يضجرون من الكُتُب، ومن المدارس، ومن المعلّمين، الذين يقضون أيّامهم في اللهو وفي اللعب والمرح، سيتحوّلون عاجلاً أم آجلاً إلى قطيع من الحمير الصغار.

- ولكنْ، أهذا صحيح حقّاً؟ - سأل بينوكيو منتحباً.

- للأسف، هذه هي الحقيقة! البكاء لم يعد ينفع الآن، كان يجب أن تفكّر قبلاً!

- ولكن هذا لم يكن ذنبي، صدِّقني، يا عزيزي المَرْمُوْط، الذنب ذنب لوتشينيولو! ...

- ومَنْ هو لوتشينيولو هذا؟! ...

- أحد أصدقاء المدرسة. أنا كنتُ أريد العودة إلى البيت، أريد أن أكونَ مطيعاً، أن أتابع الدراسة، وأن أتفوّق ... ولكن لوتشينيولو قال لي: "لماذا تريد أن تضيِّعَ وقتكَ بالدراسة؟ لماذا تريد أن تذهب إلى المدرسة؟ عوضاً عن ذلك، تعال معي إلى "بلد اللهو والمرح"، هنالك سوف لن ندرس ثانية، هنالك سنمرح من الصباح حتّى المساء، وسنكون سعداء دائماً".

- ولماذا أصغيتَ إلى نصيحة ذلك الصديق المزيّف؟ رفيق السوء ذاك؟

- لأنني ... لأنني، يا عزيزي المَرْمُوْط، لأنني دمية، تنقصها الحصافة ... وبلا قلب. أوه! لو امتلكتُ ذرّة قلب، قلّما كنتُ تركتُ أبداً تلك الحورية الطيّبة، التي كانت تحبّني كابنها، والتي عملت الكثير من أجلي! ... ولما كنتُ الآن دمية ... بل ولداً عادياً، مثل الأولاد الآخرين كلهم! أوه! ... لو أقابل لوتشينيولو، الويل له! سأقول له كل ما يعتمل في صدري!

وهَمَّ بالخروج. ولكنْ، عندما وَصَلَ إلى الباب، تذكّر أنه يملك أُذنيَ حمار، وخجلاً من أن يُريهما للآخرين، ماذا ابتكر؟ ... أخذ قبّعة كبيرة من القطن، وَضَعَها على رأسه، وأنزلها لغاية مقدّمة أنفه.

ثمّ خَرَجَ، وبدأ في البحث عن لوتشينيولو في كل مكان. بحث عنه في الطُّرُقات، في الساحات، في المسارح الصغيرة، في كل مكان، ولكنْ، دون أن يعثر عليه. سأل عنه كل مَنْ صادفه في الطريق، لا أحد كان قد رآه.

حينئذ ذَهَبَ للبحث عنه في البيت. وعندما وَصَلَ إلى هناك، قَرَعَ الباب:

- مَن الطارق؟ - سأل لوتشينيولو من الداخل.

- أنا! – أجاب بينوكيو.

- انتظرْ لحظة، وسأفتح لكَ الباب.

بعد نصف ساعة، انفتح الباب: وتصوّروا دهشة بينوكيو عندما رأى صديقه لوتشينيولو وهو يعتمر قبّعة ضخمة على رأسه مشدودة حتّى أسفل أنفه.

برؤية تلك القبّعة، أحسّ بينوكيو بالعزاء تقريباً، وفكّر فوراً في نفسه:

" ألا يكون صديقي مصاباً بمرضي نفسه؟ أن يكون هو أيضاً مصاباً بحمّى الحمير؟ ...".

ومتصنّعاً اللامبالاة، سأله مبتسماً:

- كيف حالكَ، يا صديقي لوتشينيولو؟

- أنا بخير، مثل فأر في قطعة جبن كبيرة.

- هل أنتَ جادّ فيما تقول؟

- ولماذا أكذب عليكَ؟

- اعذرني، يا صديقي، إذنْ لماذا تعتمر هذه القبّعة التي تغطّي أذنَيْكَ بالكامل؟

- لقد وَصَفَهَا لي الطبيب، لأنني أُصبتُ من هذا الكاحل. وأنتَ، يا

عزيزي بينوكيو، لماذا تعتمر هذه القبّعة القطنية المشدودة إلى أسفل منخَرَيْكَ؟

- لقد وَصَفَهَا لي الطبيب، لأنني أُصبتُ بحَرْق في إحدى قَدَمَيّ.

- أوه، يا بينوكيو المسكين! ...

- أوه، يا لوتشينيولو المسكين! ...

بعد هذه الكلمات، ساد صمت طويل، لم يفعل خلالها الصديقان أكثر من النَّظَر إلى بعضهما البعض بعيون ساخرة.

أخيراً، قال بينوكيو لصديقه بصوت عذب ومتأنّق:

- انزعْ عنّي هذا الفضول، يا صديقي لوتشينيولو: هل عانيتَ أبداً من مرض في الأذنَيْن؟

- أبداً! ... وأنتَ؟

- أبداً! على فكرة، منذ صباح هذا اليوم وأنا أعاني من أذني.

- أنا أعاني أيضاً من أذني.

- أنتَ أيضاً تعاني من أذنكَ؟ ... أيّ أذنٍ؟

- كلتا الأذنَيْن. وأنتَ؟

- كلتا الأذنَيْن. ألا يكون المرض نفسه؟

- أخشى أن يكون ذلك؟

- هل تسدي لي معروفاً، يا لوتشينيولو؟

- بكل سرور! من كلّ قلبي.

- أرني أذنَيْكَ؟

- قلّما لا؟ ولكنْ، أريد أن أرى أذنَيْكَ قبلاً، يا عزيزي بينوكيو.

- كلا، أنتَ يجب أن تكون السابق.

- كلا، يا عزيزي! أنتَ أوّلاً، وبعد ذلك أنا!

- حسناً، - قال عندئذ بينوكيو، - فلنتّفق كصديقَيْن حقيقيَّيْن.

- فلنسمع الاتّفاق.

- فلنرفع القبّعات معاً، هل توافق؟

- أوافق.

- إذنْ، استعدّ!

وبدأ بينوكيو يعدّ بصوت عالٍ:

- واحد! اثنان! ثلاثة!

عندما نطق بكلمة ثلاثة، نزع الولدان القبّعَتَيْن من رأسيهما، وألقيا بهما في الهواء.

وعندئذ حَدَثَ مشهد كان يبدو غير معقول، لو لم يكن حقيقياً. أي أن بينوكيو ولوتشينيولو، عندما أيقنا أن المصيبة نفسها قد حلّت بهما، بدلاً من أن يستكينا للألم والإحباط، بدآ يشيران إلى أذنَيْهما اللتَيْن نمتا بطريقة غير متناسبة، وبعد ألف ارتباك، انتهى بهما الأمر إلى إطلاق قهقهات مُدوّية.

ضحكا، ضحكا، ضحكا لغاية ما أخذ الإرهاق منهما: لولا أنّ، في ذروة ضحكاتهما، لوتشينيولو سكت بغتة، وبدا يترنّح، وأخذ لونه يتغيّر.

- النّجدة، النّجدة، يا بينوكيو! – صاح بألم.

- ماذا دهاكَ؟

- آه يا إلهي، لا أتمكّن من البقاء منتصباً على قَدَمَيّ.

- وأنا كذلك، - صَرَخَ بينوكيو وهو يبكي، ويترنّح.

وبينما يتكلّمان، انثنيا على الأرض، وبدآ يمشيان على أيديهما وأرجلهما، ثمّ بدآ يجريان ويدوران في الغرفة. وبينما كانا يجريان، تحوّلت ذراعاهما إلى حوافر حمار، وتطاول وجهَيْهما، بينما بدأ ينمو على ظهرَيْهما وبَرٌ رماديٌّ فاتحٌ، يتخلّله السواد.

ولكنْ، أتعرفون أسوأ لحظة، مرّ بها ذانك الصديقان؟ كانت اللحظة الأكثر سوءاً وإذلالاً عندما أحسّا ببزوغ ذَنَب من مؤخّرَتَيْهما. انتابهما عندئذ خجل وألم عميقان، وحاولا أن يبكيا، وأن يشتكيا من قَدَرهما. ويا ليتهما لم يفعلا ذلك! إذ بدلاً من النحيب والأنين، كان يخرج منهما نهيق، وبينما كانا ينهقان بصوت عالٍ، كانا يتناوبان كالكورس: حاآ، حاآ، حاآ.

في تلك اللحظة، سُمعت طرقات على الباب، وصوت يقول:

- افتحوا! أنا القزم، أنا حوذيّ العربة الذي جلبكم إلى هذا البلد. افتحوا حالاً، وإلاّ فالويل لكما!

* * *

XXXIII

بعد أن تحوّل إلى حمار حقيقيّ، بينوكيو يُساقُ للبيع، ويشتريه مدير فرقة مهرّجين لكي يُعلّمه الرقص والقفز عبر الحلقات المعدنية، ولكنْ، في إحدى الأمسيّات، يُصاب بالعَرَج، وعندئذ يشتريه شخص آخر لكي يصنعَ من جِلْده طبلاً.

عندما رأى أن الباب لا يزال مغلقاً، فَتَحَه الرجل القزم على مصراعَيْه بركلة من قَدَمه. وحالما دَخَلَ إلى الغرفة، قال بابتسامته المعهودة لبينوكيو ولوتشينيولو:

- أحسنتُم، يا أولاد! لقد نهقتُم جيّداً، وأنا عرفتُكُم فوراً من أصواتكم، ولهذا السبب ها قد أتيتُ.

أمام هذه الكلمات، بدت على الحمارَيْن علامات الاستكانة، فطأطآ رأسَيْهما، وأخفضا أذنَيْهما، وحشرا ذيلَيْهما ما بين ساقَيْهما.

في البداية، قام الرجل القزم بتمسيدهما، بمداعبتهما، بتحسّسهما، ثمّ بعد أن أخرج الكاشط المعدني المسنّن، بدأ يكشطهما جيّداً.

وظلّ يكشطهما لغاية ما حوّل جلدَيْهما إلى مرآتَيْن برّاقتَيْن، ثمّ وَضَعَ لهما الرسن، وقادهما إلى ساحة السوق، آملاً في أن يبيعَهما، ويكسب مبلغاً رصيناً.

وفي الواقع، الزبائن لم يتركوه ينتظر طويلاً.

لوتشينيولو اشتراه أحد الفلاحين، الذي كان حماره قد مات قبل يوم، وبينوكيو تمَّ بيعه إلى مدير فرقة من المهرّجين ولاعبي الحبال، الذي اشتراه، لكي يُروِّضه، ولكي يجعله يقفز ويرقص مع حيوانات السِّيرك الأخرى.

والآن، هل أدركتُم، يا قرّائي الصغار، ما هي المهنة التي كان يُمارسها الرجل القزم؟ هذا الوحش القبيح، الذي كان يملك هيئة وديعة. كان يذهب بين فترة وأخرى بالعربة، ويدور العالم. وفي أثناء الطريق، كان يجمع بوعود مُغرية الأولاد الكسالى كلهم، الذين كانوا يضجرون من الكُتُب والمدارس. وبعد أن كان يُحمِّلهم على عربته، كان يقودهم إلى "بلد اللهو والمرح"، لكي يقضوا وقتهم كله في اللعب، في الشغب وفي اللهو. ثمّ بعد أن يتحوّل أولئك الأولاد الموهومون إلى مجموعات من الحمير، بسبب انغماسهم في اللّهو دائماً، وابتعادهم عن الدراسة، عندئذ كان يضع يَدَيْه عليهم وهو في قمّة الغبطة والسرور، ويعرضهم للبيع في الأسواق والساحات العامّة. وهكذا، خلال سنوات قليلة، كان قد كسب مبالغ طائلة من النقود، وتحوّل إلى رجل غني.

لا أستطيع أن أخبركم بالضبط عمّا آل إليه مصير لوتشينيولو، ولكنْ، أعرف أن بينوكيو واجه منذ الأيّام الأولى حياة قاسية وذليلة.

عندما قاده صاحبه إلى الإسطبل، ملأ له المَعْلَف بالقَشّ: ولكن بينوكيو، بعد أن تذوّق مضغة، بصقها.

عندئذ، ملأ له صاحبه المَعْلَف بالتبن وهو يتذمّر: ولكنْ، حتّى التبن لم يرقْ له.

- آه! لا يعجبكَ حتّى التبن؟ - صاح صاحبه حانقاً. - دع الأمر لي، أيّها الحمار المُغنّج، لأنكَ إذا كنتَ تملك بعض النزوات، أنا أعرف كيف أنتزعها من رأسكَ! ...

ولكي يُربّيه، ضربه فوراً بالسوط على رجلَيْه.

بدأ بينوكيو يبكي وينهق من الألم، وكان يردِّد وهو يشهق:

- حاآ – حاآ – حاآ، أنا لا أستطيع أن أهضم القشّ! ...

- إذنْ، كُل التبن! – ردّ صاحبه الذي كان يفهم بشكل جيّد لغة الحمير.

- حاآ – حاآ – حاآ، التبن يسبّب ليّ ألماً في معدتي! ...

- إذنْ، أنتَ تطمح أن حماراً مثلكَ يجب أنْ أُطعِمَه ديوكاً مكتنزة وأطباقاً من السمك؟ - أضاف صاحبه وهو يستشيط غضباً دائماً، ثمّ ضربه بالسوط مرّة ثانية.

بعد الضربة الثانية، بينوكيو، للحيطة، هدأ فوراً، ولم ينبس بكلمة.

في هذه الأثناء، أُغلِق باب الإسطبل، وبينوكيو بقي بمفرده: وبما أنه كان لم يأكل شيئاً منذ ساعات طويلة، بدا يتثاءب من الجوع الشديد. وبينما كان يتثاءب، كان يفغر فماً مثل فوهة كهف.

في النهاية، عندما لم يجد شيئاً آخراً في المَعْلَف، استسلم، وبدأ يمضغ قليلاً من التبن: وبعد أن مضغه جيّداً، أغمض عينَيْه، وبلعه.

- هذا التبن ليس سيّئاً، -قال بعد ذلك في نفسه، - ولكنْ، كم كان أفضل لو تابعتُ الدراسة! ... لكنتُ آكلُ الآن رغيفاً ناضجاً من الخبز، وقطعة لا بأس بها من اللحم القديد! ... لا بأس ...

في صباح اليوم التالي، حالما استيقظ، بحث فوراً في المَعْلَف عن قليل من التبن مرّة أخرى، ولكنه لم يجد شيئاً، لأنه كان قد أتى عليه كلّه في أثناء الليل.

والحال، تناول مضغة من القَشّ المفروم: ولكنْ، بينما كان يمضغه، لاحظ أن نكهة القَشّ المفروم لا يشبه لا طعم الرّزّ على الطريقة التي يطبخونها في ميلانو، ولا المعكرونة على الطريقة النابوليتانية.

- لا بأس! – كرّر وهو يتابع المضغ. – فعلى الأقلّ، أتمنّى أن مصيبتي ستكون دَرْساً لكل الأولاد غير المطيعين والذين لا يملكون الرغبة في الدراسة. لا بأس! ... لا بأس!

- لا بأس إلى الجحيم! – صَرَخَ صاحبه وهو يلج الإسطبل في تلك اللحظة. – ربّما تعتقد، يا حماري البائس، أنني اشتريتُكَ لأقدّمَ لكَ الطعام والشراب فحسب؟ أنا اشتريتُكَ لكي تعملَ، ولكي تجعلَني أكسب. هيّا، إذنْ، أرني شطارتكَ! تعال معي إلى السِّيرك، وهنالك سأعلّمكَ القفز عبر الحلقات، وكيف تُحطّم برأسكَ البراميل المصنوعة من الورق، وكيف ترقص رقصة الفالس والبولكا وأنتَ واقف على رجلَيْكَ الخلفيَّتَيْن.

بينوكيو المسكين، برغبته أو غصباً عنه، اضطرّ أن يتعلّم هذه الأشياء

الجميلة كلها، ولكنْ، لكي يتعلّمها، تطلّب الأمر ثلاثة أشهر من الدروس، وسياط كثيرة تسلخ الجِلْدَ.

أتى أخيراً اليوم الذي تمكّن صاحبه من الإعلان عن استعراض رائع فعلاً. اللوحات الإعلانية التي عُلِّقَت على زوايا الشوارع كانت كالتالي:

الاستعراض الكبير

هذا المساء

عروض بهلوانية رائعة وتمارين مدهشة سيقدّمها لكم كلّ فنّاني وخيول الفرقة من كلا الجنسَيْنْ وعلاوة على ذلك، سيتمّ لأوّل مرّة تقديم الوجه الجديد:

بينوكيو

الحمار الصغير

الملقّب

نجم الرقص

إضاءة المسرح ستكون ساطعة مثل ضوء النهار

في ذلك المساء، كما يمكنكم أن تتصوّروا، كان المسرح يغصّ بالمشاهدين قبل ساعة من بدء العرض.

كانت لا توجد أماكن في الصفوف الأولى، ولا في الشرفة، حتّى لو دُفع ثمن المكان ذَهَباً.

مدرّجات السِّيرك كانت تعجّ بالأطفال، وبالطفلات، وبأولاد من الأعمار كلها، الذين كانوا لا يرون الساعة لمشاهدة بينوكيو الحمار الشهير وهو يرقص.

بانتهاء القسم الأوّل من الاستعراض، ظهر مدير الفرقة وهو يرتدي سترة سوداء، وسروالاً أبيض، وجزمة من الجِلْد تصل إلى ما فوق ركبَتَيْه. وبعد أن قام بانحناءة عظيمة، خاطب الجمهور بالخطاب البلاغي التالي:

" أيّها الجمهور المحترم، حضرات السادة والسّيّدات!"

"أنا عبدكم الفقير، عابر سبيل من هذه المدينة العظيمة، أردتُ أن يكون لي الشرف والسرور البالغ أن أقدّم لهذا الجمهور الراقي في العقل وفي الرويّة، الحمار الشهير الذي حصل له الشرف في الرقص أمام عَظَمَة إمبراطور كل البيوت المَلَكية الأوربية الرئيسة".

" أشكركم، وأرجو منكم أن تكونوا عوناً لنا بحضوركم وتألّقكم معنا".

هذا الخطاب استُقبل بضحكات وتصفيق صاخبَيْن: ولكن التصفيق تضاعف وتحوّل إلى شبه عاصفة مع ظهور بينوكيو الحمار وسط السِّيرك. كان مزركَشاً كما في مهرجان. كان يملك رسناً جديداً من الجلد اللامع، مع أبازيم ومسامير زينة نحاسية، ووَرْدَتَيْ كاميليا تُزَيِّنان أذنَيْه. بينما شَعر رقبته كان مُقسَّماً إلى جدائل كثيرة مربوطة بعقد من الفضّة تنحدر حتّى

بطنه، والذيل مضفور كله بشرائط من المخمل البنّيّ والأزرق. والحاصل، كان حماراً تعشقه الأنظار!

المدير، في أثناء تقديمه للجمهور، أضاف الكلمات التالية:

"أعزائي المحترمين! لستُ هنا بصدد سَرْد أكاذيب حول الصعوبات التي واجهتُها لفَهْم نزوات هذا الحيوان الثدي، الذي كان حُرّاً طليقاً، يرعى من جبل إلى جبل في سهوب المنطقة الحارة. راقبوا، أرجوكم، مدى الوحشية التي تقطر من عينَيْه، حيث لم أترك وسيلة لترويضه إلاّ واستعنتُ بها، لكي يعتادَ العيش مثل الحيوانات المتمدِّنة من معشر القوائم الأربع، واضطررتُ أكثر من مرّة إلى الاستعانة بالسوط. ولكنّ محاولاتي الطّيّبة كلها، بدلاً من أن تجعله لطيفاً تجاهي، زادتْ من عدائه. ولكنْ، أنا، مقتفياً أثَر غالس، عثرتُ في جمجمته على عَظْمة غضروفية صغيرة، حيث كُلّيّة الطِّبّ نفسها في جامعة باريس، كانت قد اكتشفت أنها العُدّة المسؤولة عن نُمُوّ الشَّعر والرَّقْص الحميري، وهو ما مكّنني أن أجعل منه مُعلّماً في الرَّقْص، بالإضافة إلى ما يتبع من قفزٍ عبر الدوائر وخَرْقٍ للبراميل الورقية. تمتّعوا في النَّظَر إليه، ومن ثمّ، احكموا عليه! ولكنْ، قبل أن أستودعَكم، اسمحوا لي، أيّها السادة، أن أدعوكم إلى الاستعراض اليومي مساء يوم غد: ولكنْ، إذا كان الطقس يُهدّد بهطول المطر، عندئذ سيُقدَّم العرض غداً صباحاً بدلاً من غد مساء، في الساعة الحادية عشر صباحاً".

وهنا قدّم المدير تبجيله العميق، ثمّ قال موجّهاً حديثه إلى بينوكيو:

- يا عزيزي بينوكيو! ... هيّا، ابدؤوا استعراضكم، حيّوا هذا الجمهور المحترم، السادة والسّيّدات والأولاد!

بينوكيو أطاع الأمر، وثنى رجلَيْه فوراً حتّى الأرض، وبقي على ركبَتَيْه لغاية ما صَرَخَ به المدير وهو يهزّ سوطه:

- اِنهَضْ!

عندئذ وَقَفَ الحمار على قوائمه الأربعة، وبدأ يدور حول الدائرة وهو يسرع الخُطى باستمرار.

بعد برهة، صَرَخَ فيه المدير:

- هَرْوِلْ! – وبينوكيو أطاع الأمر، وبدأ يُهرول.

- عَدْوُ الفَرَس! ... – وبينوكيو بدأ يعدو كالفَرَس.

- عَدْوُ السباق! – وبينوكيو بدأ يعدو كحصان سباق سريع.

ولكنْ، عندما حان الوقت لكي يركض كحصان عَدْو، رَفَعَ المدير ذراعه، وأطلق عياراً نارياً.

فور سماع صوت الطلقة، سَقَطَ الحمار على الأرض متصنّعاً إصابتَه بجرح قاتل.

بعد أن نَهَضَ عن الأرض، وسط عاصفة من التصفيق، والصرخات وخبطات الأيدي التي كانت تصل أصواتها حتّى النجوم، رَفَعَ رأسه تلقائياً، ونَظَرَ إلى الأعلى ... وعندئذ رأى في الشرفة سيّدة جميلة، كانت تحمل في رقبتها سلسالاً كبيراً من الذَّهَب، يتدلّى منه قلادة.

كانت القلادة تحمل صورة لدمية.

- تلك هي صورتي! ... وتلك السّيّدة هي الحورية! - قال بينوكيو في نفسه مُتعرِّفاً عليها فوراً: ومستسلماً لغبطة كبيرة، جرّب أن يصرخ:

- آه، يا حوريّتي! آه، يا حوريّتي!

ولكنْ بدلاً من هذه الكلمات، خَرَجَ من حلقه نهاق طويل ومرتفع، لدرجة جعلت كل الحاضرين يضحكون، وبالأخصّ الأولاد المتواجدين في المسرح. عندئذ، لكي يُعلِّمه، ولكي يجعله يفهم أنه من غير اللائق النهيق في وجه الجمهور، ضربه المدير بمقبض سوطه على أنفه.

الحمار المسكين، بعد أن أخرج لسانه شبراً، بدأ يَلْحَسُ أنفه لمدّة خمس دقائق على الأقل، مُعتقداً أنه بهذه الطريقة سيُخفّف الألم الذي مُنِيَ به.

ولكنْ، كم كان يأسه كبيراً عندما التفت للمرّة الثانية، ورأى أن الشرفة كانت فارغة، والحورية كانت قد اختفت! ...

أحسّ وكأنه يموت: اغرورقت عيناه بالدموع، وبدأ يبكي بغزارة. ولكنْ، لم يلحظ أحد ذلك، وأقلّ من الآخرين المدير، بل بالعكس، هذا الأخير هزّ سوطه، وصاح:

- شاطر، يا بينوكيو! والآن، دعْ هؤلاء السادة يشاهدون براعتكَ في القفز عبر الدوائر.

بينوكيو حاول أن يقفزَ مرّتَيْن أو ثلاث مرّات: ولكنْ، في كل مرّة كان يصل فيها إلى أمام الحلقة، بدلاً من أن يجتازها، كان يعبر من تحتها بارتياح. في النهاية، قَفَزَ وتمكّن من اجتيازها، ولكن رجلَيْه الخلفيَّتَيْن بقيَتَا، لسوء

حظّه، عالقَتَيْن بالإطار، ولهذا السبب، سَقَطَ كومة واحدة على الأرض من الجهة الثانية.

عندما نَهَضَ، كان يعرج، وتمكّن بالكاد من العودة إلى الإسطبل.

- أخرِجوه! أخرِجوه! أخرِجوه! – كان الأولاد يصرخون من الصالة، مشفقين ومتأثّرين من الحادث الأليم.

والحمار لم يظهر مرّة ثانية في تلك الأمسيّة.

في اليوم التالي، البيطار، أو بالأحرى طبيب الحيوانات، عندما زاره، أعلن أنه سيبقى أعرج مدى الحياة.

عندئذ قال المدير لصبيّ الإسطبل:

- ماذا تريدني أن أفعلَ بحمار أعرج؟ سيكون عبئاً علينا بأكله، خُذْهُ، إذنْ، إلى الساحة، وبِعْهُ.

بوصولهم إلى الساحة، وجدوا حالاً مَنْ يشتريه. الزبون سأل صبيّ الإسطبل:

- كم تطلب مقابل هذا الحمار الأعرج؟

- عشرون ليرة.

- أنا أدفع لكَ عشرون قرشاً. لا تظنّ أنني سأشتريه لكي أستخدمَه، إنني أشتريه من أجل جِلْده فحسب. أرى أن جِلْده قاس جدّاً، وأريد أن أصنعَ من جِلْده طبلاً للفرقة الموسيقية في بلدتي.

أترك لكم أن تتصوّروا، يا أيّها الأولاد، المتعة التي شَعَرَ بها بينوكيو عندما سمع بأنه حُكِمَ عليه أن يتحوّل إلى طَبْلٍ!

والحال، حالما دفع الشاري مبلغ عشرين قرشاً، قاد الحمار إلى صخرة على شاطئ البحر، وبعد أن وَضَعَ حجرة على عنقه، وربطها بأحد رجلَيْه بحبل كان يمسكه بيده، دفعه فجأة، ليقع في الماء.

بينوكيو، مع تلك الحجرة في عنقه، وَصَلَ فوراً إلى القاع، والشاري جلس على الصخرة وهو يمسك بقوّة بالحبل، ريثما يمتلك الحمار وقته كله، ليموت غرقاً، لكي يسلخَ جِلْده لاحقاً.

* * *

XXXIV

بينوكيو، بعد أن رُمِيَ في البحر، أكلتْهُ الأسماك، وعاد دمية مثل السابق، ولكنْ، بينما كان يسبح، لينجو بنفسه، قامت بابتلاعه سمكة القرش الرهيبة.

بعد خمسون دقيقة من وجود الحمار تحت الماء، قال الشاري بينه وبين نفسه:

- بعد هذا الوقت، حماري الأعرج المسكين يجب أن يكون قد لفظ أنفاسه الأخيرة. فلنسحبه إلى الأعلى، إذنْ، ولنصنع من جِلْده طبلاً جميلاً.

وبدأ يسحب الحبل الذي كان قد ربط به قَدَمَي بينوكيو: وبعدما سحب، سحب، سحب، في النهاية، رأى على وجه الماء ... خمّنوا ماذا رأى؟ بدلاً من حمار ميّت، بانت له على سطح الماء دمية حيّة، حيث كانت تعوم مثل سمكة الأنَقَلَيْس.

برؤية تلك الدمية الخشبية، ظنّ الرجل المسكين أنه يحلم، وبقي هناك مشدوهاً، فاغر الفم وجاحظ العينَيْن.

بعد أن عاد إلى رشده بعض الشيء، قال وهو يتلعثم وينتحب:

- وأين الحمار الذي ألقيتُ به في البحر؟

- ذلك الحمار هو أنا! – أجاب بينوكيو ضاحكاً.

- أنتَ؟

- أجل، أنا.

- آه! أيّها اللصّ! ربمّا تعتقد أنكَ تستطيع خداعي؟

- أخدعكَ؟ بالعكس، يا سيّدي، أنا أقول لكَ الحقيقة.

- ولكنْ، كيف تكون أنتَ، ومنذ قليل كنتَ حماراً؟ كيف تحوّلتَ إلى دمية خشبية في الماء؟

- ربمّا حَدَثَ ذلك بتأثير من ماء البحر. أحياناً، البحر لا ينأى عن هزار من هذا القبيل!

- حذار، أيّتها الدمية، حذار! ... لا تعتقدي بأنه يمكنكِ اللهو معي. الويل لكِ إذا فَقَدْتُ صبري.

- حسناً، يا سيّدي: هل تريد أنتَ أن تعرف القصّة الحقيقية كلها؟ فُكَّ القيد من رجليّ، وأنا سأرويها لكَ.

ذلك الشاري المُغفّل، متشوِّق لسماع قصّته الحقيقية، فَكَّ فوراً عقدة الحبل الذي كان يُقيّده، وبعدما وَجَدَ بينوكيو نفسه حُرّاً مثل طير طليق، استهلّ حديثه كالتالي:

- إذنْ، قبل كل شيء، أودّ أن أخبرَكم أنني كنتُ دمية من خشب، كما أنا اليوم، وكنتُ بصدد أن أتحوّل إلى طفل بين لحظة وأخرى، مثل كل

الأطفال الموجودين في هذا العالم، لو لم يكن بسبب رغبتي القليلة في الدراسة، وبسبب إصغائي لرفقاء السوء، فهربتُ من البيت ... وفي أحد الأيّام، باستيقاظي، وجدتُ نفسي قد تحوّلتُ إلى حمار بأذنَيْن طويلَتَيْن وذيل أيضاً! ...كم كان ذلك مخجلاً بالنسبة ليّ! ... مخجلاً، يا سيّدي، لدرجة أن سان أنطونيو المقدّس لا يجعلكَ تجرّبه أنتَ أيضاً! تمّ بيعي في سوق للحمير، حيث اشتراني مدير فرقة سِيرك، الذي وَضَعَ في رأسه أن يجعل منّي راقصاً مشهوراً وبطلاً في القفز عبر الدوائر المعدنية، ولكنْ، في إحدى الأمسيّات، في أثناء تقديم العرض، وقعتُ على خشبة المسرح وَقْعة أليمة، وبقيتُ أعرجاً من كلا الرجلَيْن. عندئذ، بما أنه لم يعد يعرف ماذا يفعل بحمار أعرج، أرسلني للبيع، وأنتم اشتريتُموني!

- للأسف! ... والآن أين سأجد جِلْداً آخراً؟

- لا تيأسوا، يا سيّدي، هنالك الكثير من الحمير في هذا العالم!

- قل لي، أيّها الولد الصلف: وهل قصّتكَ تنتهي هنا؟

- كلا، – أجاب بينوكيو، - هنالك كلمَتَأن أخيرتان، ثمّ تنتهي. بعد أن اشتريتَني، قُدتَني إلى هذا المكان، لتقضي عليّ، ولكنْ، فيما بعد، مستسلماً إلى إحساسٍ إنسانيٍّ، فضّلتُم أن تربطوا حجرة على رقبتي، وأن تُلقوا بي في قعر البحر. هذا الإحساس المتفاني يُشرِّفكم كثيراً جدّاً، وأنا سأذكر فضلكم مدى الحياة. بالإضافة إلى ذلك، يا سيّدي العزيز، هذه المرّة قمتُم بحساباتكم بمعزل عن الحورية ...

- ومَنْ هي هذه الحورية؟

- إنها أمّي، التي تشبه الأمّهات الطيّبات كلهنّ، اللواتي يحببنَ أولادهنّ

كثيراً، ولا يتركُنَهم يختفون عن أنظارهنّ، ويساعدْنَهم بحنان، كلّما وقعوا في مأزق، حتّى عندما هؤلاء الأولاد، بسبب شَغَبهم وبسبب سلوكهم السيّئ، يستحقّون أن يُهمَلوا ويُترَكوا لمصيرهم. إذنْ، كنتُ أقول، إن الحورية الطيّبة، حالما رأتني أكاد أغرق، بعثتْ فوراً حولي قطيعاً هائلاً من الأسماك، الذين باعتقادهم أنني حمار ميّت منذ أمد بعيد، بدؤوا يأكلونني! وكان عليكَ أن تراهم كيف كانوا يقضمونني! قلّما كنتُ صدّقتُ أبداً أن الأسماك شرهة أكثر من الأولاد! هنالك مَنْ أكل أذْنيّ، مَنْ أكل رأسي، مَنْ أكل رقبتي وشَعري، مَنْ أكل جِلْد رجليّ، مَنْ أكل جِلْد ظهري ... ومن بين الأشياء الأخرى، كانت هنالك سمكة لطيفة جدّاً، حيث تنازلتْ وأكلتْ حتّى ذَنَبي.

- من اليوم فصاعداً، - قال الشاري مرتعداً، - أقسم أنني سوف لن أتذوّق لحم السمك. سوف يؤسفني كثيراً أن أفتحَ بطن سمكة بوري أو سمكة بقلة مقلية، وأجد في داخلها ذنب حمار!

- أنا أشاطركَ الرأي، - ردّ بينوكيو ضاحكاً. – مع ذلك، يجب أن تعرفوا أن الأسماك بعد أن انتهت من أكل ذلك القشر الحميري كله، الذي كان يغطّيني من الرأس حتّى القوائم الأربع، أتوا، - كما هو طبيعي، إلى العظام ... أو بكلمة أخرى، وَصَلُوا إلى الخشب، لأنه كما ترون، أنا مصنوع من خشب صلب جدّاً. وبعد أن جرّبوا اللقمة الأولى، انتبهت تلك الأسماك الشرهة فوراً أن الخشب لم يكن دهناً لأسنانهم، ومتقزّزين من هذا الطعام الذي لا يمكن هَضْمه، ذهبوا بحالهم متفرّقين هنا وهناك، دون حتّى أن يلتفتوا، ويشكروني ... وها أنا قد رويتُ لكم لماذا عندما سحبتُم الحبل، وجدتُم دمية حيّة بدلاً من حمار ميّت.

- لا يهمّني البتّة ما ترويه، - صَرَخَ الشاري غاضباً. – أنا أعرف أنني

صرفتُ عشرين قرشاً لكي أشتريكَ، وأريد أن أسترجع نقودي. أتعرف ماذا أريد أن أفعل؟ سأعيدكَ إلى السوق، وسأبيعكَ مقابل وزنكَ من الخشب اليابس لإشعال النار في الموقد.

- افعلْ ما تشاء، فأنا سأكون مسروراً، – قال بينوكيو.

ولكنْ، بينما كان ينطق بهذه الكلمات، قَفَزَ قفزة رائعة وغطّ في الماء، وبدأ ينادي الشاري وهو يسبح بغبطة مُبتعداً عن الشاطئ:

- وداعاً، يا سيّدي، إذا كنتُم بحاجة إلى جِلْد لكي تصنعوا منه طبلاً، تذكّروني.

ثمّ كان يضحك ويتابع السباحة: بعد قليل، ملتفتاً إلى الوراء، كان يصرخ بصوت أعلى:

- وداعاً، يا سيّدي، إذا كنتُم بحاجة إلى قليل من الخشب اليابس لكي تُشعلوا النار، تذكّروني.

وفي أقلّ من لمح البصر، كان قد اختفى عن الأنظار، حيث لم يعد يُشاهَد بالعين المجرّدة: أو بالأحرى كانت تُشاهد على سطح ماء البحر نقطة سوداء صغيرة، والتي كانت بين فترة وأخرى ترفع قَدَمَيْها خارج الماء، وتقفز وتتشقلب مثل دلفين مرح.

وبينما كان بينوكيو يسبح بشكل عشوائي، رأى في وسط البحر كتلة من الصخر، حيث كانت تبدو وكأنها من المرمر الأبيض: وكانت توجد فوق قمّتها معزة تثغو بحنان، وتشير له بأن يقترب.

الأمر المثير كان هذا: أن شَعر المعزة، بدلاً من أن يكون أبيضاً، أو أسوداً،

أو مكوّناً من لونَيْن، مثل الأصناف الأخرى من الماعز، كان لونه أزرقاً، ولكنه أزرق يخطف البصر، حيث كان يُذكِّر كثيراً بشَعر الطفلة.

أترك لكم أن تتصوّروا فيما إذا كان قلب بينوكيو بدأ يخفق بقوّة أكثر!

مُضاعِفاً قوّته وطاقته، بدأ بينوكيو يسبح باتّجاه الكتلة الصخرية البيضاء: وكان قد وَصَلَ إلى منتصف الطريق، عندما ظهر فجأة من تحت الماء رأس وحش بَحْري مرعب، بفم فاغر، مثل هوّة، وثلاثة صفوف من الأنياب التي لكانت ألقت الرعب في النفوس برؤيتها وهي مرسومة فحسب.

وهل تعرفون مَنْ كان ذلك الوحش البَحْري؟

ذلك الوحش البَحْري لم يكن لا أكثر ولا أقلّ من سمكة القرش العملاقة التي ذكرناها أكثر من مرّة في هذه القصّة، والتي بسبب بطشها وشراهتها اللامحدودَيْن، كانت تُلقَّب باسم «أتيلا(*) الأسماك والصّيّادين».

تخيّلوا خوف بينوكيو برؤية الوحش. حاول أن يتلافاه، أن يُغيِّر من مساره: حاول أن يهرب: ولكن ذلك الفاه الفاغر كان يقترب منه أكثر فأكثر بسرعة البرق.

- أسرعْ، يا بينوكيو، بحقّ السّماء! - كانت تصرخ المعزة الجميلة وهي تثغو.

وبينوكيو كان يسبح بيأس، بذراعَيْه، بصدره، وبرجلَيْه، وبقَدَمَيْه.

- أسرعْ، يا بينوكيو، لأن الوحش يقترب منكَ!

---

*) أتيلا الهوني: ملك هوني عاش بين عامَي ٤٠٦ - ٤٥٣. كان آخر حكّام الهون وأقواهم، وأسّس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية كبيرة الاتّساع، عاصمتها فيما يُسمّى هنغاريا اليوم. امتدّت إمبراطوريّته من نهر الفولغا شرقاً، وحتّى ألمانيا غرباً.

وبينوكيو، مُستجمعاً قواه كلها، كان يضاعف حدّة السرعة.

- انتبه، يا بينوكيو! ... الوحش يقترب منكَ! ... ها هو! ... ها هو! ... أسرعْ، بحقّ السّماء، أو سيبتلعكَ! ...

وبينوكيو كان يُسرع أكثر من أيّ وقت مضى، مُنطلقاً مثل رصاصة بندقية. وبينما كان بمحاذاة الكتلة الصخرية، والمعزة تنحني بثقلها كله على البحر، وتمدّ له رجلها، لكي تساعده في الخروج من الماء!

ولكنْ، كان قد فات الأوان! كان الوحش قد أدركه: الوحش، مستنشقاً الهواء، ابتلع بينوكيو كما يشرب بيضة دجاج نيّئة: وابتلعه بعنف وبشراهة كبيرَتَيْن، لأن بينوكيو، عندما سَقَطَ في جوفه، أحسّ بصدمة، أبقتْه مُشوَّشاً لمدّة ربع ساعة من الزمن.

بعد أن استعاد رشده، كان حتّى هو لا يعرف في أيّ عالم يتواجد. كان الظلام الدامس يحيط به من كل جانب، ظلام قاتم وداكن، حيث كان يبدو له وكأنّه يتواجد داخل دواة مليئة بالحبر. بدأ يصغي، ولم يسمع أيّ صوت، إنما بين فترة وأخرى فقط، كان يُحسّ بهبّات من الريح تلفح وجهه. في البداية، لم يتمكّن من تحديد مصدر الريح، ثمّ أدرك فيما بعد أنه كان يخرج من رئَتَي الوحش. لأنه يلزم التنويه أن سمك القرش كان يعاني كثيراً من الربو، وعندما كان يتنفّس، كان تنفّسه يبدو وكأنه ريح شمالية عاصفة.

في البداية، حاول بينوكيو أن يستجمعَ شجاعته قليلاً، ولكنْ، عندما امتلك البرهان القاطع على أنه يتواجد داخل جسد الوحش البَحْري، عندئذ بدأ يبكي وينتحب، وكان يقول باكياً:

- النجدة! النجدة! يا لمصيري البائس! ألا يوجد مَنْ يأتي وينقذني؟

- مَنْ تريد أن ينقذكَ، يا أيّها البائس؟ ... – علا صوت ناعم غير متناغم من ذلك الظلام.

- مَن الذي يتكلّم؟ - سأل بينوكيو وهو يقشعرّ من الفزع.

- أنا! أنا سمكة تونا مسكينة، بلعتْني سمكة القرش سوية معكَ. وأنتَ أيّ صنف من الأسماك تكون؟

- أنا لا أملك أيّ قاسم مشترك مع الأسماك. أنا دمية.

- إذنْ، إذا لم تكن سمكة، لماذا تركتَ نفسكَ فريسة للوحش؟

- لم أكن أنا مَنْ سمح له أن يبتلعَني، بل هو الذي قام بالمبادرة بمفرده! والآن، ماذا علينا أن نفعل في هذا الظلام هنا؟ ...

- أن نستسلم، وأن ننتظر ريثما يهضمنا! ...

- ولكنْ، أنا لا أريد أن أُهضَمَ! – صَرَخَ بينوكيو معاوداً البكاء.

- وأنا أيضاً لا أريد أن أُهضَمَ، -أضافت سمكة التونا، - ولكنْ، أنا فيلسوفة، بما فيه الكفاية، وأُعزّي النَّفْس في التفكير أنه، عندما يُولَد أحد ما كسمكة تونا، يشعر بكرامة أكثر عندما يموت تحت الماء بدلاً من أن ينتهي مُعلّباً في الزيت! ...

- هراء! – صَرَخَ بينوكيو.

- إنه رأي أقوله، - ردّت سمكة التونا، - والآراء، كما تقول أسماك التونا الحكيمة، يجب أن تُحْتَرَمَ!

- الحاصل ... أنا أريد أن أخرجَ من هنا ... أنا أريد أن أهربَ ...

- اهربْ، إذا تمكّنتَ من ذلك!

- هل هي ضخمة كثيراً سمكة القرش هذه التي ابتلعَتْنا؟ - سأل بينوكيو.

- تخيّل أن طول جسمها يتجاوز الكيلومتر، دون أن نحسبَ الذّيل.

في أثناء هذا الحديث الذي كان يدور في الظلام، بدا لبينوكيو رؤية ضوء في العمق.

- ماذا يمكن أن يكون ذلك الضوء الذي يُشاهَد في البعيد؟ -قال بينوكيو.

- يمكن أن يكون أحد رفاقنا الذين وقعوا في المأزق مثلنا، وينتظر أن يحينَ دوره في أن يُهضَمَ! ...

- أريد أن أذهبَ، وأراه. ألا يمكن أن تكونَ سمكة عجوز، يمكن أن تدلّني على طريق للهرب من هنا؟

- أتمنّى لكَ ذلك من قلبي كله، يا دميتي العزيزة.

- وداعاً، يا عزيزتي.

- وداعاً، يا دميتي، وحظّاً سعيداً.

- أين سنلتقي؟

- مَنْ يعرف؟ ... من الأفضل ألا نُشغلَ بالنا بهذا الأمر!

* * *

XXXV

بينوكيو يعثر في جسم سمكة القرش على ...
على ماذا يعثر؟
اقرؤوا هذا الفصل، وستعرفون القصّة.

بعد أن ودّع بينوكيو صديقته الطيّبة سمكة التونا، بدأ يتخبّط في الظلام، ويتحسّس طريقه داخل جسم سمكة القرش، مُتّجهاً خطوة تلو الأخرى نحو ذلك الضوء الخافت الذي كان يشعّ في البعيد.

وفي أثناء مشيه، كان يحسّ برجلَيْه تخوضان بماء دهني وزلق، وكانت تفوح من ذلك السائل رائحة واخزة لسمك مَقليّ، وكان يبدو له وكأنه في أوّل أيّام العيد.

وكلّما كان يتقدّم، كان الضوء يُصبح أكثر وضوحاً وتألّقاً. وبعد مشي طويل، وَصَلَ أخيراً إلى هدفه. وعندما وَصَلَ ... ماذا وَجَدَ؟ أترك لكم الوقت كلّه، لكي تتخيّلوا عبثاً: وَجَدَ طاولة صغيرة مُوضّبة، تعلوها شمعة صغيرة مغروسة في فوهة قنّينة من الكريستال الأخضر، ووراء الطاولة، كان يجلس عجوز أبيض، كما لو أنه من الثلج، أو من القشدة المخفوقة، وكان

يزدرد بعض السمكات الصغيرات وهي حيّة، حيّة لدرجة أنه أحياناً، بينما كان يمضغها، كانت تنسلّ هاربة من فمه.

أمام ذلك المشهد، شَعَرَ بينوكيو بسعادة كبيرة وغير مُنتظَرَة، حيث تمكّن بالكاد من ضَبْط نفسه، لكيلا يقعَ فريسة للهذيان. كان يريد أن يضحكَ، أن يبكيَ، أن يقولَ أشياء كثيرة، ولكنْ، بدلاً من ذلك، بدأ يغمغمُ ويدمدمُ بكلمات لا معنى لها. أخيراً، تمكّن من إطلاق صرخة بهجة، ثمّ بدأ يصرخ وهو يفتح ذراعَيْه، ويُلقي بنفسه على عنق العجوز:

- آه، يا أبي! لقد وجدتُكَ أخيراً! سوف لن أتركَكَ بعد الآن، أبداً، أبداً!

- يا إلهي، هل ما أراه صحيح؟ - ردّ العجوز وهو يفرك عينَيْه، - إذنْ، أنتَ ابني وحبيبي بينوكيو؟

- نعم، نعم، أنا بينوكيو، أنا هو بالذات! وأنتَ قد سامحتَني، أليس كذلك؟ آه، يا أبي، كم أنتَ رجل طيّب! ... وفيما إذا فكّرنا أنني .... آه! ولكنْ، لو تعرف كم من المصائب حلّت بي! وكم من الأشياء لم أتمكّن من إنجازها! تصوّروا أنني في اليوم الذي بعتَ فيه سترتكَ لتشتريَ لي كتاب تعليم الأبجدية، لكي أرتاد المدرسة، هربتُ من البيت، لكي أحضرَ عرض الدمى، ومُحرِّك الدمى كان يريد أن يُلقي بي في النار من أجل شَيّ خروفه، وكان هو الذي أعطاني خمس ليرات ذهبية، لكي أجلبَهَا لكَ، ولكنْ، أنا صادفتُ الثعلب والقطّ اللذَيْن أخذاني إلى حانة القريدس الأحمر، حيث أكلا مثل الذئاب، وسافرتُ بمفردي في أثناء الليل، حيث التقيتُ بالقَتَلَة اللذَيْن بدآ يلاحقانني، أنا هربتُ وهما ورائي دون أن يتركَا أثري، لغاية ما شنقاني على غصن شجرة السنديانة العملاقة، ثمّ أرسلتْ

طفلةٌ جميلةٌ ذات شَعر أزرق عربةً لتأخذَني، والأطبّاء عندما زاروني، قالوا حالاً:" إذا لم يكن ميّتاً، فهذه علامة على أنه حَيّ"، وعندئذ نطقتُ ببعض الكلمات الكاذبة، وبدأ أنفي ينمو، ولم يعد بإمكاني العبور من باب الحجرة، وذَهَبَت مع الثعلب والقطّ، لكي أطمرَ الليرات الذَّهَبيَّة الأربع، حيث كنتُ قد صرفتُ ليرة منهم في الحانة، والببغاء بدأ يُقهقهُ، وبدلاً من ألفَي ليرة ذهبية، لم أعثرْ على أي شيء، ولهذا السبب، عندما علم القاضي أنهم سلبوني نقودي، أمر بإلقائي في السجن حالاً، لكي يُرضي اللصوص، ومن هناك، بينما كنتُ في طريق عودتي، رأيتُ عنقود عنب شهياً في الحقل، حيث اصطادني الفخّ، والفلاح الذي كان مُحقّاً تماماً في فِعْلته، وَضَعَ طوق الكلب حول رقبتي، لكي أقومَ بحراسة حظيرة الدجاج، ثمّ اعترف ببراءتي، وأطلق سراحي، والأُفْعُوَان، بذنبه الذي كان يصدر منه الدخان، بدأ يضحك، وانفجر شريان في صدره، وهكذا عدتُ إلى بيت الطفلة، التي كانت قد فارقت الحياة، والحمامة عندما رأتْني أبكي، قالت لي:" لقد رأيتُ أباكَ، حيث كان يصنع زورقاً صغيراً، لكي يذهبَ ويبحث عنكَ"، وأنا قلتُ لها:" آه لو أملكُ جناحَيْكِ؟"، والحمامة قالت لي:"هل تريد أن تذهب لعند أبيكَ؟"، وأنا قلتُ لها:" يا ليت! ولكنْ، مَنْ سيأخذني إليه؟"، وهي قالت لي: "أنا سأحملكَ إليه "، وأنا قلتُ لها: "كيف؟"، وهي قالت لي:" امتطِ ظهري"، وهكذا طرنا طوال الليل، وبعد ذلك، في صباح اليوم التالي، الصّيّادون كلهم الذين كانوا ينظرون باتّجاه البحر، قالوا لي: "هنالك رجل مسكين في الزورق الصغير في طريقه إلى الغرق"، وأنا تعرّفتُ عليكَ حالاً من بعيد، لأن قلبي كان يُنبِّئني، وأشرتُ لكَ، لكي تعود إلى الشاطئ ...

- أنا تعرّفتُ عليكَ أيضاً، - قال جيبيتّو، - ولكنتُ عُدتُ إلى الشاطئ

بكل سرور، ولكنْ، كيف كان بإمكاني أن أفعل ذلك؟ كان البحر هائجاً والأمواج العاتية قلبتْ زورقي. عندئذ، سمكة قرش رهيبة حيث كانت متواجدة في الجوار، حالما رأتْني في الماء، هُرعت فوراً نحوي، وبعد أن مَدَّت لسانها خارجاً، أمسكت بي، وابتلعتْني مثل حبّة تورتيللينو بولونية(*).

- ومنذ متى أنتَ مسجون هنا؟ -سأل بينوكيو.

- منذ ذلك اليوم، ربمّا مضى عامان من الزمن، حيث يبدوان لي وكأنهما قرنان، يا عزيزي بينوكيو.

- وكيف تمكّنتُم من البقاء على قيد الحياة؟ وأين وجدتُم الشمعة؟ ومَنْ أعطاكم عيدان الثقاب، لكي تُشعلوها؟

- سأروي لكَ الآن كل شيء. يجب أن تعرفَ أن تلك العاصفة نفسها، التي قلبت زورقي، أغرقتْ أيضاً سفينة لنَقْل البضائع. البحّارة نجوا جميعاً، ولكن السفينة رَسَتْ في القعر، وسمكة القرش هذه نفسها، التي كانت تملك شهية كبيرة في ذلك اليوم، بعد أن ابتلعتْني، ابتلعت السفينة أيضاً ...

- كيف؟ هل ابتلعتَها كلها بلقمة واحدة؟ ... سأل بينوكيو مندهشاً.

- أجل، ابتلعتْها كلها بلقمة واحدة، وبَصَقَت عمود السارية الكبير فقط، لأنه بقي بين أسنانها مثل الحسك. لحسن حظّي الكبير، تلك السفينة كانت مُحمَّلة باللحوم المحفوظة في علب من الرصاص، بالبسكويت، أو بالخبز المُقمَّر، بزجاجات النبيذ، بالزبيب، بالجُبن، بالقهوة، بالسُّكّر،

*) تورتيللليني، نوع من أنواع المعجّنات المَحشوّة بالجبن واللحم القديد الذي تشتهر به مقاطعة إيميليا - رومانيا، وعاصمتها أو مدينتها الرئيسة بولونيا، وتقع في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الإيطالية.

بالشمع، وبعلب عيدان الثقاب الشمعية. مع خيرات الرّبّ هذه كلها، تمكّنتُ من البقاء على قيد الحياة لمدّة عامَيْن: ولكنْ، اليوم بقيت لي الشذرات الأخيرة: لا يوجد اليوم في الخزانة أيّ شيء، وهذه الشمعة، التي تراها مشتعلة، هي الشمعة الأخيرة التي بقيتْ في حوزتي ...

- وبعد ذلك؟ ...

- وبعد ذلك، يا عزيزي، سنبقى كلانا في الظلام.

- إذنْ، يا أبي الغالي، - قال بينوكيو، - لا يوجد وقت لإضاعته. يجب أن نفكّر فوراً في طريقة للهرب ...

- للهرب؟ ... وكيف؟

- أن نهربَ من فم سمكة القرش، ونُلقي بأنفسنا في البحر.

- أنتَ محقّ: ولكنْ، أنا لا أجيد السباحة، يا عزيزي بينوكيو.

- وماذا يهمّ؟ ... أنتَ ستمتطي ظهري، وأنا، بما أنني سبّاح ماهر، سأجلبكَ سليماً إلى الشاطئ.

- أوهام، يا بنيّ، أوهام! – ردّ جيبيتّو وهو يهزّ رأسه ويبتسم بكآبة. – هل يبدو لكَ ممكناً أن دمية لا يتجاوز طولها المتر مثلكَ، يمكن أن تملكَ القوّة الكافية، لكي تحملَني على كتفَيْها؟

- جرّبوا، وسترون! على أيّ حال، إذا كان مكتوباً في السماء أننا يجب أن نموت، سنملك العزاء الكبير في أن نموت ونحن متعانقَيْن.

ودون أن يضيف كلمة أخرى، تناول بينوكيو الشمعة بيده، وقال لأبيه وهو يتقدّم ليُنير الطريق:

- اتبعني، يا أبي، ولا تخشَ شيئاً.

وهكذا مشيا لمسافة، لا بأس بها، واجتازا جسد ومعدة سمكة القرش كلَيْهما. ولكنْ، عندما وَصَلاَ إلى النقطة التي يبدأ فيها حَلْق الوحش، فكّرا جيّداً في التّوقّف، لكي يترصّدا ويستغلا اللحظة المناسبة للهرب.

الآن يجب التنويه أن سمكة القرش، لأنها كانت متقدّمة في السّنّ وتعاني من الربو، ومن ارتعاش في القلب، كانت مضطرّة لأن تنام وفمها مفتوح: لهذا السبب، عندما أطلّ بينوكيو من الحَلْق، ونَظَرَ إلى الأعلى، تمكّن من رؤية جزء لا بأس منه من السماء المضاءة بالنجوم وشعاع قمر بديع المنظر.

- إنها اللحظة المناسبة، لكي نهربَ، - همس عندئذ ملتفتاً إلى أبيه.
– سمكة القرش تنام مثل الزغبة، والبحر هادئ والرؤية مثل النهار. تعال، إذنْ، يا أبي خلفي، وبعد قليل، سنكون في برّ الأمان.

بعد ذلك، صَعَدَا عبر حَلْق الوحش البَحْري، وعندما وَصَلاَ إلى ذلك الفم الهائل، بدآ يمشيان على رؤوس أصابعهما فوق لسانه، لسان عريض وطويل جدّاً، حيث كان يبدو وكأنه درب في حديقة. وبينما كانا على وشك القفز، عطستْ سمكة القرش، وكانت عطسة قوية جدّاً، بحيث أعادت بينوكيو وأبيه مجدّداً إلى قعر معدة الوحش.

بسبب الاصطدام الكبير، انطفأت الشمعة، والأب والابن بقيا في الظلام.

- والآن؟ ... – سأل بينوكيو بجدّيّة.

- الآن، يا بنيّ، انتهى أمرنا.

- لماذا انتهى أمرنا؟ أعطني يَدَكَ، يا أبي واحذرْ من أن تنزلقَ! ...

- إلى أين تقودني؟

- يجب أن نعاودَ الكرّة، تعال معي، ولا تخفْ.

بعد أن قال ذلك، أمسك بينوكيو بيد أبيه، ومتقدِّمَيْن دائماً على رؤوس أصابعهما، صَعَدَا مجدّداً حَلْق الوحش، ثمّ اجتازا لسانَه، وانسلا من بين صفوف الأسنان. ولكنْ، قبل أن يقوما بالقفزة الكبيرة، قال بينوكيو لأبيه:

- اصعدْ على كتفي، وأمسكْ بي بقوّة، وأنا سأتكفّل بالبقية.

حالما صَعَدَ جيبيتّو على كتفَيّ ابنه، بينوكيو واثقاً من خطّته، ألقى بنفسه في الماء، وبدأ يعوم. كان البحر هادئاً مثل راحة اليد: القمر كان مشعّاً بضيائه كله، وسمكة القرش كانت تتابع نومها بعُمق، ولما كانت أيقظتْها حتّى قذيفة مدفع.

* * *

XXXVI

أخيراً بينوكيو يتوقّف عن كونه دمية ويتحوّل إلى ولد.

بينما كان بينوكيو يعوم بسرعة، لكي يصل إلى الشاطئ، لاحظ أن أباه، الذي كان يمتطي كتفَيْه ورجلَيْه غاطستَيْن في الماء حتّى المنتصف، كان يرتعش بقوّة، كما لو أنه مصاب بالحمّى.

أكان يرتعش من الخوف؟ أم من البرد؟ مَنْ يعلم؟ ربمّا بسببهما كلَيْهما. ولكن بينوكيو، مُعتقداً أن ذلك الارتعاش سببه الخوف، قال له معزّياً:

- تشجّع، يا أبي! سنصل إلى اليابسة خلال بضع دقائق، وسننجو بأنفسنا.

- ولكنْ، أين هي هذه اليابسة المباركة؟ - سأل العجوز وقلقه يزداد أكثر فأكثر، ومحدّقاً كما يفعل الخيّاطون عندما يبحثون عن ثقب الإبرة، قال:
- ها أنذا أنظر إلى الجهات كلها، ولا أرى سوى البحر والسماء.

- ولكنْ، أنا أرى الشاطئ أيضاً، -قال بينوكيو. – لعِلْمكم، أنا مثل القطّ، أرى في الليل أكثر ممّا أرى في النهار.

بينوكيو المسكين كان يتصنّع المرح، ولكنْ ... ولكنْ، كان قد بدأ

يستسلم: كانت قواه قد بدأت تخور، ولهاثه يزداد، وتنفّسه يصبح أكثر صعوبة ... في الحاصل، كان قد أنهكَه التعب والشاطئ كان لا يزال بعيداً.

سَبَحَ لغاية ما كان يملك من القوّة ، ثمّ استدار نحو جيبيتّو، وقال بكلمات متقطّعة:

- ساعدني، يا أبي ... لأنني في طريقي إلى الموت!

والأب والابن كانا على وشك الغَرَق، عندما سمعا صوتاً شبيهاً بعزف غيتار غير متناسق يقول:

- مَن الذي يوشك على الموت؟

- أنا وأبي المسكين! ...

- أنا أعرف هذا الصوت! هل أنتَ بينوكيو؟ ...

- بالضبط، وأنتِ؟

- أنا سمكة التونا، رفيقتُكَ في السجن داخل جسد سمكة القرش.

- وكيف تمكّنتِ من الهرب؟

- قلّدتُكَ أنتَ. أنتَ الذي علَّمني الطريق، وبعدكَ، هربتُ أنا أيضاً.

- يا عزيزتي، لقد وصلتِ في الوقت المناسب! أرجوكِ، باسم الحبّ الذي تكنّينه لصغاركِ، ساعدينا، أو أننا سنهلكُ.

- بكل سرور، ومن قلبي كله. أمسكا كلَيْكما بذَنَبي، ودعوني أقودكما، سأجلبكما إلى الشاطئ خلال أربع دقائق.

جيبيتّو وبينوكيو، كما يمكنكم أن تتصوّروا، قبلا فوراً الدعوة، ولكنْ، بدلاً من أن يُمسكوا بذَنَبها، فَضَّلا امتطاء ظهرها.

- هل وزننا ثقيل جدّاً؟ ... سألها بينوكيو.

- ثقيل؟ أبداً، يبدو لي وكأنني أحمل على ظهري قوقَعَتَيْن فارغَتَيْن، -أجابت سمكة التونا، التي كانت تملك جسداً قوياً وضخماً مثل عجل، يبلغ عامَيْن من العمر.

بوصولهم إلى الشاطئ، قَفَزَ بينوكيو أوّلاً إلى اليابسة، لكي يساعد أباه في النزول، ثمّ التفت نحو سمكة التونا، وقال لها بصوت مؤثّر:

- يا صديقتي، لقد أنقذتِ أبي! بالتالي، لا أعرف كيف أشكركِ! اسمحي لي، على الأقلّ، أن أُقبّلكِ كدليل اعتراف أبديّ بالجميل! ...

أخرجت سمكة التونا رأسها من الماء، وطَبَعَ بينوكيو قبلة حنوناً على فمها وهو مقرفص على ركبَتَيْه. أمام هذه المبادرة العفوية والحنونة جدّاً، سمكة التونا المسكينة، التي لم تكن معتادة على مثل هذه الأمور، شَعَرَت بانفعال كبير، وخوفاً من أن تذرفَ الدموع مثل طفل صغير، أَخْفَتْ رأسها مجدّداً تحت الماء، واختفت.

في هذه الأثناء، كان قد بزغ ضوء النهار.

عندئذ، قدّم بينوكيو ذراعه لجيبيتّو، الذي كان يقف بالكاد على قَدَمَيْه، وقال له:

- استندْ على ذراعَي، يا أبي الغالي، ولننطلق. سنمشي ببطء مثل النملات، وعندما نتعب سنستريح عبر الطريق.

- وإلى أين سنذهب؟ - سأل جيبيتّو.

- سنذهب للبحث عن بيت أو كوخ، حيث يمكنهم أن يمنّوا علينا بلقمة من الخبز وبقليل من القشّ، لكي ننام عليه.

لم يقطعا بعد مئة خطوة، حيث وَجَدَا جالسَيْن على حافة الطريق خطمان قبيحان، كانا بصدد طَلَب الإحسان.

كانا الثعلب والقطّ، ولكنْ، كان لا يمكن التّعرّف عليهما. تصوّروا أن القطّ، بقدر ما كان يتصنّع العمى، انتهى بأن أصبح أعمى فعلاً: والثعلب كان قد أصبح عجوزاً متهالكاً على نفسه، وكان لا يملك حتّى ذيلاً. هكذا كان، ذلك اللّصّ البائس، الذي انتهى به الأمر إلى فَقْر مُدقع، وَجَدَ نفسه مضطرّاً في أحد الأيّام حتّى لبَيْع ذيله الجميل إلى بائع متجوّل، لكي يصنع منه كشّاشة ذباب.

- يا بينوكيو، - صَرَخَ الثعلب بصوت مُتباكٍ، -أَحْسِنْ إلى هذَيْن المُقْعَدَيْنِ الفقيرَيْن.

- مُقْعَدَيْنِ! – كرّر القطّ.

- وداعاً، أيّها المُحْتالَان! – ردّ بينوكيو. – لقد خدعتُماني مرّة واحدة، ولا يمكنكما أن تخدعاني مرّة أخرى أبداً.

- صدِّقني، يا بينوكيو، نحن اليوم فقراء وتعيسَيْن حقّاً!

- حقّاً! – كرّر القطّ.

- إذا كنتُما فقيرَيْن، فيَداكُما أوكَتا وفوهكما نفخ. تذكّرا المَثَلَ الذي يقول: "نقود الآخرين، لا تجعل المرء غنياً". وداعاً، أيّها المُحْتالَان!

- أشفقْ علينا! ...

- علينا! ...

- وداعاً، أيّها المُحْتالاْن! تذكَّرا المَثَلَ الذي يقول:" طحين الشيطان يتحوّل كلّه إلى نخالة".

- لا تتركنا! ...

- ...ركنا! – كرّر القطّ.

- وداعاً، أيّها المُحْتالاْن! تذكَّرا المَثَلَ الذي يقول:" مَنْ يسرق عباءة جاره، عادة ما يقضي نحبه بلا قميص".

وبينما يلفظ هذه الكلمات، بينوكيو وجيبيتّو تابعا طريقَهما بهدوء: وبعد أن قَطَعَا مئة خطوة أخرى، شاهدا في نهاية درب في وسط الحقول كوخاً جميلاً مصنوعاً من القشّ، والسقف مغطّى بالقرميد.

- ذلك الكوخ يجب أن يكون مسكوناً من أحد ما، - قال بينوكيو. – فلنذهب، ونقرع الباب.

وبالفعل، ذَهَبَا وقَرَعَا الباب.

- مَن الطارق؟ - نادى صوت رفيع من الداخل.

- نحن أب وابن فقيرَان، بلا طعام وبلا مأوى، - أجاب بينوكيو.

- أديرا المفتاح، وسيُفتَح الباب، -أجاب الصوت نفسه.

بينوكيو أدار المفتاح، والباب انفتح. حالما دَخَلَا، نَظَرَا من هنا، ونَظَرَا من هناك، ولم يريا أحداً.

- ولكنْ، أين صاحب البيت؟ - قال بينوكيو بدهشة.

- ها أنذا في الأعلى!

الأب والابن نَظَرَا فوراً إلى السقف، ورأيا فوق الدّعامة الجُدْجُد – الناطق.

- آه، يا عزيزي الجُدْجُد، - قال بينوكيو مُحيّياً إيّاه بلطف.

- الآن تناديني "عزيزي الجُدْجُد"، أليس كذلك؟ ولكنْ، هل تذكر كيف قَذَفْتَني بمطرقة خشبية، لتطردَني من البيت؟ ..

- أنتَ محقّ، يا أيّها الجُدْجُد! اطردْني بدوركَ ... اقذفْني بمطرقة خشبية، ولكنْ، أشفِقْ على أبي المسكين ...

- أنا سأُشفق على الأب وعلى الابن أيضاً، ولكنْ، أردتُ أن أذكِّركَ بالمعاملة السيّئة التي تلقّيتُها منكَ، لكي أعلِّمكَ أنه في هذا العالم، عندما يتمكّن المرء، يجب أن يكون لطيفاً مع الجميع، فيما إذا أردنا أن نُعامَلَ بالطريقة نفسها عند الحاجة.

- أنتَ مُحقّ، أيّها الجُدْجُد، أنتَ مُحقّ تماماً، وأنا سأحفظ الدَّرْسَ الذي لقَّنتَني إيّاه. ولكنْ، أخبرْني كيف تمكّنتَ من شراء هذا الكوخ الجميل؟

- هذا الكوخ أهدتْني إيّاه يوم أمس معزة جميلة، حيث كانت تملك شَعراً أزرقاً في منتهى الجمال.

- وأين ذَهَبَت هذه المعزة؟ - سأل بينوكيو بفضول كبير.

- لا أعرف.

- ومتى ستعود؟

- سوف لن تعود أبداً. لقد سافرت يوم أمس، وهي حزينة جدّاً، وكان يبدو وكأنها تقول وهي تثغو: "يا لبينوكيو المسكين ... سوف لن أراه بعد الآن ... حتماً انتهى به المطاف في جوف سمكة القرش! ...".

- هذا ما قالتْه بالضبط؟ ... إذنْ، كانت هي! ... كانت هي! ... كانت حوريّتي الغالية! ... – بدأ يصرخ بينوكيو، وهو يشهق ويبكي بغزارة.

بعد أن بكى مُطوّلاً، جفَّف عينَيْه، وجهَّز سريراً مريحاً من القشّ، ومَدّد جيبيتّو العجوز فوقه. ثمّ سأل الجُدْجُد - الناطق:

- قل لي، يا أيّها الجُدْجُد، أين أستطيع أن أجدَ كوباً من الحليب لأبي المسكين؟

- على مسافة ثلاثة حقول، يوجد البستاني جانجو الذي يمتلك أبقاراً. اذهبْ إليه، وستجد الحليب الذي تبحث عنه.

بينوكيو ذَهَبَ بسرعة إلى بيت البستاني جانجو، ولكن البستاني قال له:

- ما هي كمّيّة الحليب التي تطلبها؟

- أريد كوباً مليئاً.

- كوب الحليب ثمنه قرش واحد. في هذه الأثناء، أرني نقودكَ.

- أنا لا أملك حتّى سنتاً واحداً، - أجاب بينوكيو مُحبَطاً ومُغتماً.

- هذا أمر سيّئ، يا عزيزي، - ردّ البستاني. – إذا كنتَ لا تملك سنتاً واحداً، وأنا لا أملك قطرة من الحليب.

- لا بأس! – قال بينوكيو، وهَمَّ بالعودة من حيث أتى.

- انتظرْ قليلاً، -قال جانجو. – بإمكاننا أن نتّفق أنا وأنتَ. هل تستطيع أن تُدير الشادوف؟

- ما هو الشادوف؟

- إنه ذلك الذراع الخشبي الذي يُستخدَم لغَرْفِ الماء من الخزّان لسَقي الخضراوات.

- سأحاول ...

- إذنْ، اغرفْ لي مئةَ دلو من الماء، وأنا سأهديكَ كوباً من الحليب.

- موافق.

جانجو قاد بينوكيو إلى البستان، وعلّمه كيف يدير الشادوف. بينوكيو بدأ فوراً في العمل، ولكنْ، قبل أن ينتهيَ من غرف مئة دلو من الماء، أصبح مُبلَّلاً بالعَرَق من رأسه إلى أخمص قَدَمَيْه. لم يكن قد قام بعمل متعب مثل ذاك أبداً.

- لغاية هذا اليوم، كنتُ أوكلُ مهمّة إدارة الشادوف لحماري: - قال البستاني، - ولكنْ، اليوم ذلك الحيوان المسكين يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- هل يمكنني أن أراه؟

- بطيبة خاطر.

حالما دَخَلَ بينوكيو إلى الإسطبل، رأى حماراً مُستلقياً على القشّ، مُنهكاً من الجوع، ومن العمل الشاقّ.

بعد أن حدَّق فيه مَلياً، قال في نفسه منزعجاً:

- أنا واثق من أنني أعرف ذلك الحمار! وجهه ليس غريباً عليّ!

ومنحنياً فوقه، سأله بلهجة الحمير:

- مَنْ تكون؟

بسماعه هذا السؤال، فَتَحَ الحمار المحتضر عينَيْه، وأجاب وهو يتلعثم باللهجة نفسها:

- أنا لوتشين ... يو ... لو...

وبعد ذلك، أغمض عينَيْه، ولفظ أنفاسه الأخيرة.

- آه، يا لوتشينيولو المسكين! – قال بينوكيو بصوت خافت، وتناول حفنة من القشّ، وجفّف دمعة، كانت تسيل على خدّه.

- أنتَ تنفعل كلّ هذا القدر من أجل حمار، لم يُكلّفكَ شيئاً؟ -قال البستاني. – إذنْ، ماذا عليّ أن أفعل أنا الذي دفعتُ ثمنه نقداً؟

- سأقول لكَ ... كان صديقي!

- صديقكَ؟

- أحد زملائي في المدرسة! ...

- كيف؟! - صاح البستاني وهو يضحك ملء شدقَيْه. – كيف؟! كنتَ تملك حميراً كزملاء مدرسة! ... يا للعلوم النبيلة التي تعلّمتَها! ...

بينوكيو، مغتاظاً من تلك الكلمات، لم يجبْ، ولكنه أخذ كوب الحليب الذي كان ساخناً تقريباً، وعاد إلى الكوخ.

ومنذ ذلك اليوم، بقي لمدّة خمسة أشهر يغتسل كل صباح، قبل الفجر، لكي يذهبَ ويديرَ الشادوف، ولكي يكسبَ بتلك الطريقة كوب الحليب ذاك الذي كان يفيد كثيراً صحّة والده المتدهورة. ولم يقف عند هذا الحدّ، لأنه في الوقت المتبقّي، كان يُهيّئ بمهارة كبيرة كل متطلّبات أبيه اليومية. من بين الأشياء الأخرى، صَنَعَ بنفسه عربة أنيقة، لكي يقودَ أباه في مشاوير، في أثناء الأيّام الجميلة، ولكي يستنشقَ قليلاً من الهواء.

وفي سهرات المساء، كان يتدرّب على القراءة والكتابة. كان قد اشترى من البلدة المجاورة كتاباً ضخماً مقابل بضع سنتات، وكان ينقصه الغلاف والفهرس، وكان يستخدمه للقراءة. أمّا فيما يتعلّق بالكتابة، فقد كان يستخدم غصناً يابساً، شُذِّب مثل القلم، وبما أنه كان لا يملك دواة ولا حبراً، كان يغمسه في قارورة صغيرة مليئة بعصير التوت والكرز.

الخلاصة، بإرادته الطيّبة وبذكائه، بعمله وبتفانيه، لم يقمْ فقط بتوفير عناية لائقة لأبيه الذي كان مريضاً دائماً، بل أكثر من ذلك، تمكّن من توفير أربعين قرشاً، لكي يشتريَ بدلة جديدة.

في صباح أحد الأيّام، قال لأبيه:

- أنا ذاهبٌ إلى السوق القريب من هنا، لكي أشتري لنفسي سترة، قبّعة وزوجاً من الأحذية. عندما سأعود إلى البيت، - أضاف ضاحكاً، - سأكون أنيقاً، لدرجة تحسبني فيها سيّداً.

وبخروجه من البيت، بدأ يركض بغبطة وسرور. فجأة سمع مَنْ يناديه باسمه، ومستديراً إلى الخلف، رأى حَلَزُوْناً بديعاً، يخرج من السياج.

- ألا تعرفني؟ - قال الحَلَزُوْن.

- نعم، ولا ...

- ألا تذكر ذلك الحَلَزُوْن الذي كان يعمل خادماً لدى الحورية ذات الشَّعر الأزرق؟ ألا تذكر تلك المرّة عندما نزلتُ لأضيءَ لكَ الطريق وكانت قَدَمُكَ مغروسة في الباب؟

- أذكر كلّ شيء، - صَرَخَ بينوكيو. - أخبرْني حالاً، أيّها الحَلَزُوْن الطيّب، أين تركتَ حوريّتي الطّيّبة؟ ماذا تفعل؟ هل سامحتْني؟ هل تذكرني دائماً؟ هل لا تزال تحبّني؟ هل هي بعيدة جدّاً من هنا؟ هل أستطيع أن أزورَها؟

أجاب الحَلَزُوْن على هذه الأسئلة المتتالية كلها بهدوئه المعهود:

- يا عزيزي، بينوكيو! الحورية المسكينة طريحة الفراش في المستشفى! ...

- في المستشفى؟ ...

- للأسف! لقد عانت من مصائب كثيرة، وأصابها مرضٌ خطيرٌ، ولا تملك حتّى ثمن لقمة من الخبز.

- حقّاً؟ ... آه! يا للألم الذي سبَّبَتَهُ ليّ! آه! يا للحورية المسكينة! يا للحورية المسكينة! يا للحورية المسكينة! ... لو كنتُ أملك مليوناً، لكنتُ هُرعتُ، لأعطيها إيّاه ... ولكنني لا أملك سوى أربعين قرشاً ... ها هم هنا، كنتُ ذاهباً لتوّي، لكي أشتري لنفسي بدلة جديدة، خذهم، واجلبْهم فوراً إلى حوريّتي الطّيّبة.

- وبدلتكَ الجديدة؟

- ماذا يهمّني من البدلة الجديدة؟ أنا جاهز لبَيْع حتّى هذه الأسمال

التي أرتديها، لكي أتمكّن من مَدّ يد العون لها! اذهبْ، أيّها الحَلَزُوْن، أسرعْ، وارجعْ إلى هنا خلال يومَيْن، حيث آمل أن أعطيكَ نقوداً أخرى. لقد عملتُ حتّى الآن لكي أعتنيَ بأبي، من الآن فصاعداً، سأعمل خمس ساعات إضافية، لكي أعتني بأمّي الطّيّبة. وداعاً، أيّها الحَلَزُوْن، أنتظر عودتكَ بعد يومَيْن.

الحَلَزُوْن، بعكس عادته، بدأ يزحف مثل سِحْلِيَّة في حَرّ آب الشديد.

عندما عاد بينوكيو إلى البيت، سأله أبوه:

- والبدلة الجديدة؟

- لم أعثرْ على واحدة تناسبني. لا بأس! ... سأشتريها في المرّة القادمة.

في ذلك المساء، بينوكيو، بدلاً من أن يسهر حتّى الساعة العاشرة، بقي مستيقظاً حتّى بُعيد منتصف الليل، وبدلاً من أن يصنعَ ثمانية سلال من القصب، صنع ستّة عشر سلّة.

بعد ذلك، ذَهَبَ إلى سريره، وخَلَدَ إلى النوم. وفي أثناء النوم، بدا له أنه يشاهد الحورية في الحلم، وكانت جميلة ومبتسمة، حيث قالت له بعد أن قبَّلتْه:

- أحسنتَ، يا بينوكيو! عُرْبُوْناً لقلبكَ الطّيّب، أنا أصفح عن الطيش كله الذي قمتَ به إلى اليوم. الأولاد الذين يساعدون أبوَيْهم بمحبّة كبيرة في مرضهما، وفي فقرهما، يستحقّون دائماً المديح والحنان، حتّى ولو أنه لا يمكن عَدّهم نماذج من الطاعة والسلوك الجيّد. فكِّرْ جيّداً بمستقبلكَ، وستكون سعيداً.

الحلم انتهى عند هذه النقطة، وبينوكيو استيقظ بعينَيْن هلعَتَيْن.

الآن، تخيّلوا كم كانت دهشته عظيمة عندما استيقظ، واكتشف أنه لم يعد دمية من خشب، بل كان قد تحوّل إلى ولد مثل الآخرين. نَظَرَ حواليه، وبدلاً من كوخ القشّ، رأى غرفة جميلة مفروشة ومزيّنة ببساطة أنيقة تقريباً. قَفَزَ من السرير، ورأى بانتظاره بدلة جديدة جميلة، وقبّعة جديدة، وزوجاً من الأحذية المصنوعة من الجِلْد الرائع.

حالما انتهى من ارتداء ملابسه، وَضَعَ يَدَيْه تلقائياً في جيبَيْه، وأخرج علبة صغيرة من العاج، حيث كان مكتوباً عليها هذه الكلمات: "الحورية ذات الشَّعر الأزرق تعيد إلى بينوكيو الغالي قروشه الأربعين، وتشكره كثيراً لطيبة قلبه". بفَتْحه العلبة، بدلاً من الأربعين قرشاً نحاسياً، كانت تبرق أربعون ليرة ذهبية جديدة.

بعد ذلك، ذَهَبَ لينظرَ إلى نفسه في المرآة، وبدا له أنه شخص آخر. لم يرَ الصورة الاعتيادية للدمية الخشبية، ولكنْ، الصورة المفعمة بالحيويّة والذكاء، لصبيّ ذي شَعر كستنائيّ، وعينَيْن زرقاوَيْن، ووجه بشوش مثل وردة نضرة.

وسط هذه الأشياء الرائعة كلها التي كانت تتوالى الواحدة تلو الأخرى، كان بينوكيو نفسه لم يعدْ يعرف فيما إذا كان في اليقظة حقّاً أم أنه كان يحلم دائماً بعينَيْن مفتوحَتَيْن.

- وأبي، أين هو؟ - صَرَخَ فجأة، وبدخوله إلى الغرفة المجاورة، وَجَدَ جيبيتّو العجوز في كامل صحّته، نشيط الحركة، وذا مزاج رائق، مثلما كان عليه في الماضي، حيث، بما أنه كان قد عاود فوراً إلى عمله كَنَحّات خشب، كان يرسم إطاراً جميلاً مزداناً بالنباتات، وبالورود، وبرؤوس حيوانات مختلفة.

- أودّ أن أطرحَ عليكَ هذا السؤال لمجرّد الفضول، يا أبي: ولكنْ، كيف

يمكننا تعليل هذه التغييرات المفاجئة كلها؟ - سأله بينوكيو وهو يعانقه، ويغمره بالقُبلات.

- الفضل كله يعود لكَ في هذا التغيير المفاجئ في بيتنا، - قال جيبيتو.

- لماذا الفضل لي؟

- لأن الأولاد عندما يتحوّلون من شرّيرين إلى طيّبين، يُضفون مظهراً جديداً وسارّاً حتّى ضمن بيوتهم.

- وأين يمكن أن يكون مختبئاً بينوكيو القديم المصنوع من الخشب؟

- إنه هناك، -أجاب جيبيتو، مشيراً إلى دمية كبيرة مسنودة إلى المقعد، ومَطوية إلى قسمَيْن، حيث كانت ستبدو معجزة، لو وَقَفَت منتصبة.

استدار بينوكيو، لينظرَ إليها، وبعد أن حدّق فيها للحظة، قال في نفسه بارتياح كبير:

- كم كنتُ مضحكاً عندما كنتُ دمية! ... وكم أنا مسرور الآن، لأنني تحوّلتُ إلى ولد قويم! ...

* * *